الكتاب: نظرات في التصوف والكرامات
المؤلف: محمد جواد مغنية
الجزء:
الوفاة: ١٤٠٠
المجموعة: من مصادر العقائد عند الشيعة الإمامية
تحقيق:
الطبعة:
سنة الطبع:
المطبعة:
الناشر: منشورات المكتبة الأهلية - بيروت
ردمك:
ملاحظات:

نظرات
في التصوف والكرامات

محمد جواد مغنية
نظرات
في التصوف والكرامات
منشورات المكتبة الأهلية – بيروت

مقدمة

بسم الله، وله الحمد، والصلاة والسلام على خيرته من خلقه محمد خاتم النبيين، وآله المتقين ، وصحبه المخلصين.

وبعد:

فقد كانت، وما زالت مهمة الأديان والمصلين أن تهذب من غرائز الانسان، وتضع حدا لنزواته وأنانيته، وأن تحول بينه وبين ما يؤدي به وبالمجتمع إلى الشقاء والاسواء، وكانت وسيلتهم إلى ذلك أن يخلقوا في داخل الانسان وازعا ورادعا عن أسباب الفوضى والفساد والانحراف، فأمرت الأديان بالتقوى والورع، وتوعدت العاصين، ووعدت المطيعين، كما بين المفكرون النتائج السيئة إذا اطلق الانسان لنفسه العنان، وكما وضعت الحكومات من القوانين والتشريعات ما يوقف الانسان عند حده، ويمنعه من الاعتداء على حقوق غيره.

وهذي احدى غايات التصوف وثمراته عند أصحابه وأربابه، فلقد حرصوا على أن يؤمن الانسان ويعتقد بان السعادة ليست

في الملذات، والانغماس في الشهوات، وان تحصل في نفسه ملكة تصرفه عن كل ما يشين، وترتفع به إلى اخلاق الملائكة والنبيين.

وقد حوت هذه الصفحات فصولا في التصوف وأقسامه، وصلته بنظرية المعرفة، والأفلاطونية الحديثة، وفي كرامات الأولياء، وما إلى ذلك مما فهمته من كلمات المتصوفة.

واقتصرت – كما هي عادتي – على ذكر اللباب والأسس – التي اعتمدها المتصوفة، والأهداف التي رموا إليها، وتركت ما يريب القارئ من الخرافات والمعميات إلى ما لا يريبه من الحقائق والواضحات.

سبب التأليف:

أقام المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في الجمهورية العربية المتحدة مهرجانا دوليا للغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده، واستمر المهرجان في جامعة دمشق من ٢٧ إلى ٣١ آذار سنة ١٩٦١، وقد انتدبتني الحكومة اللبنانية لأمثلها فيه، فألقيت في اليوم الأول كلمة موجزة باسم لبنان وحكومته، وفي اليوم الثالث ألقيت محاضرة في " نظرية المعرفة وحقيقة الكشف عند الغزالي ".

ثم رغب إلى رئيس الجامعة اللبنانية الأستاذ فؤاد افرام البستاني ان اكتب محاضرة في التصوف، لتلقى في ندوة الجامعة

بحضور أساتذتها وتلاميذها، فكتبت الفصل الأول من هذا الكتيب، ثم مضيت في الكتابة إلى الفصل الأخير منه، وأرجو ان يحقق الغرض الذي قصدته، وهو تقديم صورة واضحة عن أصول أهل التصوف وطريقتهم وأهدافهم.

وكنت قبل ان أتصدى للكتابة في التصوف اسخر منه، وممن يراه شيئا مذكورا، وبعد أن درسته، وتفهمته على حقيقته آمنت بأن من يسيطر على نفسه، ويسير بها في سبيل النبل والرفعة لا بد أن يبلغ المعرفة بالله، وبالخير، أو قل: ان من اتقى الله حق تقاته يؤيده بروح منه، ويهديه سبيل الرشاد.

ان أصل التصوف الحق هو التخلق باخلاق الله، وثمرته معرفة الله، والاتصاف بالحكمة التي وصف الله بها الأنبياء والأولياء، وصرحت بها الآية ١٢ من سورة لقمان: " ولقد آتينا لقمان الحكمة " والآية ٢٦٩ من سورة البقرة: " ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ".

وبالتالي، فان الايمان بالحق والخير ضرورة لا غنى عنها للانسان، ولهذا الايمان سبل شتى، وأكملها التجرد والعمل لوجه الحق والخير، والله ولي التوفيق.

التصوف والرهبنة

ما هو التصوف؟ وما هي الغاية المقصودة منه؟ وهل هو من الموضوعات الاسلامية الخالصة، أو ان تاريخه يمتد إلى ما قبل الاسلام؟ وبالتالي، هل الرهبانية هي التصوف بالذات، أو شئ آخر لا يمت إلى التصوف بصلة.

ما هو التصوف؟

قد يظن أن التصوف طريقة تدعو إلى ترويض النفس على الفقر والمسكنة، ولبس المرقعات، وحمل المسابح، وترك الكسب والعمل لتحصيل العلم والعيش، والاقبال على ذكر الله في الخلوات والحلقات.

ولا مصدر لمن فسر التصوف بذلك الا انه رأى فئة من الكسالى تحترف العيش عن هذه السبيل، ثم تتستر بذكر الله، واسم التصوف، فتخيل ان هذا هو المعنى الحقيقي للتصوف، وبديهة أن الحق لا يعرف بالرجال، بل العكس هو الصحيح.

ولو أخذنا معنى التصوف من بعض المنتسبين اليه، والمتسمين

بسمته، لكنا كمن يأخذ المسيحية عن مقلنس، والاسلام عن معمم، ويدع القرآن والإنجيل، وما فيهما من تعاليم واحكام وفرائض.

ولا شئ أدل على أن التصوف غير الزهد من أن معنى الزهد يتحقق بمجرد الاعراض عن الدنيا ومتاعها، أما التصوف فقد أخذ في مفهومه مجاهدة النفس وترويضها، أجل، ان الزهد ثمرة من ثمرات التصوف، وليس هو التصوف بالذات، على أن ابن عربي، وهو أحد شيوخ الصوفية قد فسر هذا الحديث القدسي حكاية عن الله سبحانه: " أنا الرحمن خلقت الرحم، وشققت لها اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها، قطعته " فسره بأن العمل في هذه الحياة ضرورة لازمة لكل انسان صوفيا كان أو غير صوفي، ويتلخص شرحه لهذا الحديث بأن الله أراد من الرحم الطبيعة، فكما أن الرحم تضم الطفل، وتغذيه، وتحفظ له الحياة كذلك الطبيعة تضم الانسان، وتطعمه، وفيها ينمو ويكبر، اما صلة الانسان للطبيعة فهو أن يجد فيها ويعمل، ومعنى قطعه لها أن يكسل ويهمل، وقال الشيخ العربي: من بخس حق الطبيعة فقد بخس حق الله، وجهل ما فيها من اسرار.

هذا، إلى أن ما يحصل للانسان من الثواب والنعيم في الآخرة، وبعد الموت فهو من نتائج العمل في هذه الحياة، فليس الكمال الأخروي الا من ثمرات العمل في الطبيعة نفسها، وهذا معنى قوله تعالى: " وان ليس للانسان الا ما سعى "

ومعنى قول الإمام علي: " اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل ". وحمل المسابح ولبس المرقعات وعقد الحلقات ليس في شئ من العمل عند الله وعند الناس.

اذن التصوف شئ، والزهد شئ آخر، وأيضا ليس التصوف من الشعائر والعقائد الدينية، ولا من التقاليد السائدة والنظم الاجتماعية، ولا هو حقيقة طبيعية تفرض نفسها فرضا، وانما هو بأساليب التربية أشبه، نقول هذا، مع العلم بأن التصوف بمعناه الشامل لكل فئة تتسم به، وتنتمي اليه لا يجمعه حد ولا رسم، لان المتصوفة على أنواع، فمنهم من هام بحب الله، ومنهم من يدعي الاتصال المباشر بالله، ومنهم القائل بالاتحاد مع الله، وآخر قال بحلول الله فيه وفي غيره، ومنهم من يقول بالكشف والاشراق، وما إلى ذلك، فالتصوف اذن بمعناه الشامل لجميع النزعات والاتجاهات ليس مذهبا محدود المعالم والمقاصد، وبالتالي فلا يمكن الإشارة اليه بحد جامع مانع.

وقد ذكر له تعاريف شتى أنهاها بعضهم إلى نيف وسبعين تعريفا، ومهما يكن فنحن نشير اليه بأنه الانتصار على النفس، والتغلب على ميولها وأهوائها عن طريق التدريب والتهذيب، تماما كترويض الحيوان المفترس على الوداعة، فيصبح وادعا مسالما بعد إن كان شريرا مخاصما.

الغاية من التصوف
أما الغاية المقصودة من التصوف فتختلف تبعا لا نظار المتصوفين، فمن اعتبره سببا من أسباب المعرفة فتكون الغاية عنده ثقافية، ومن رآه طريقا إلى الكمال فتكون الغاية أخلاقية، ومن اتخذه وسيلة للخلاص من عذاب الآخر فتكون دينية، وبعضهم يرى التصوف سببا لهذه مجتمعة.
تاريخ التصوف:
ان التصوف بمعناه الشامل لجميع أنواعه وصوره، وكما تبحثه كتب الفلسفة ليس من المسائل والموضوعات الاسلامية الخالصة التي يرجع فيها إلى القرآن والحديث النبوي، بل إن التصوف بمعنى الاتحاد والحلول ووحدة الوجود ينكره الاسلام، وينفيه نفيا قاطعا، تاريخ التصوف يمتد إلى ما قبل الاسلام، وقد تسرب إلى الفكر الاسلامي، واندمج به كغيره من الأفكار الأجنبية، فوحدة الوجود والحلول قد جاءا من الفلسفة الهندية والأفلاطونية الحديثة، كما أن البوذية ترتكز تعاليمها على تهذيب النفس وتحريم الملذات.
وقال الباحثون في التصوف: ان الصوفية لمسلمين كانوا في أول امرهم يتلون القرآن، ويكثرون من العبادة وذكر الله، ثم تكلم أبو يزيد البسطامي في الفناء بالله، وهذه الفكرة توجد في البوذية، وتمسى عندهم " نرفانا ". وقال الباحثون أيضا: ان النصرانية أحد منابع التصوف، وعنها اخذ لبس الصوف،

إذ كان كثير من الرهبان يلبسونه، والى النصرانية يسند الكلام في حب الله.

الرهبانية والتصوف:

قال بعض المستشرقين: ان الرهبانية المسيحية أحد منابع التصوف الاسلامي وتبعه على ذلك جماعة من المصريين، منهم الدكتور زكي مبارك، قال في الجزء الثاني من كتاب التصوف الاسلامي: " ان المسلمين كانوا يرون المسيح قدوة في الشؤون الروحية، فإنهم عرفوا الإنجيل منذ زمن بعيد، وقد ترجموه ترجمة فصيحة جدا، ومن تلك الترجمة الفصيحة شواهد كثيرة في كتب الأدب والتصوف، كالذي نراه في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، وكتاب الاحياء للغزالي، والتشابه كبير جدا بين مذاهب النصارى ومذاهب الصوفية في التعبد، فالنصراني المتبتل يدخل الكنيسة وفي جيبه كتاب يشتمل على طوائف من الأدعية والصلوات، والصوفي المخلص يدخل المسجد، وفي يده كتاب يشتمل على طوائف الاستغاثات والأحزاب والأوراد ".

ونحن لا ننكر الرهبانية المسيحية، كيف، وقد نص عليها القرآن الكريم في الآية ٢٨ من سورة الحديد: " ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء مرضاة الله، فما رعوها حق رعايتها "، كما أثنت الآية ٨٦ على الرهبان والقسيسين: " ذلك بأن منهم قسيسين ورهبان وانهم لا يستكبرون ".

ولكن نتساءل: هل الرهبانية هي التصوف؟ وهل القسيسين

والرهبان من المتصوفة حقا أو انهم رجال دين يعيشون معيشة خاصة، ويتزيون بزي خاص، يعبدون الله ويقومون بمهمة الدفاع عن العقيدة، وتعليمها للناس بالوعظ والارشاد؟

اما نحن فنميل إلى الرهبانية غير التصوف، وان رجال الدين شئ، والمتصوفة شئ آخر، بخاصة التصوف النظري هو أحد أسباب المعرفة، ومهما يكن، فلا يمكن الباحث المنصف ان يرجع التصوف بمعناه المتشعب إلى أصل واحد محدود.

أجل، يمكن ان نرجع إلى المسيحية الحب الإلهي عند المتصوفة المسلمين، على أن القرآن الكريم قد صرح به في أكثر من آية، ولكنه أراد الحب بمعنى الطاعة والانقياد لله والجهاد في سبيله، لا بمعنى الوجد والشوق.

التصوف والاسلام:

والآن، ما هو موقف الاسلام من التصوف؟ هل ينكره أو يقره؟ وقد أشرنا فيما سبق إلى اقسام التصوف وأنواعه، فما كان من نوع مجاهدة النفس ومراقبتها، والاقبال على الله وعمل الحق فهو من صميم الاسلام، بل سماه النبي بالجهاد الأكبر، وسمى الجهاد بالسيف الجهاد الأصغر.

وما كان بمعنى الاتصال بالله مباشرة وبلا واسطة، أو الاتحاد والحلول فهو كفر والحاد.

وما كان من نوع الشعوذة والمراء، وادعاء السحر، وعلم الغيب والكرامات فهو فسق ونفاق، وقد جاء من طرق الشيعة

أحاديث كثيرة في ذم التصوف والمتصوفين بهذا المعنى، والمعنى الذي قبله، وان الصوفية " قطاع طريق المؤمنين، والدعاة إلى نحلة الملحدين، وانهم حلفاء الشيطان، ومخربوا قواعد الدين، يتزهدون لراحة الأجسام، ويتهجدون لصيد الأنام، ولا يتبعهم الا السفهاء، ولا يعتقد بهم الا الحمقاء ".

اما أن يكون التصوف سببا من أسباب المعرفة، وطريقا لبعض المجهولات، اما ان يلهم القلب الزكي بنوع من الحقائق فله مصدر واضح في الاسلام، ويمسى هذا التصوف بالتصوف النظري، وبعلم القلب، ولعلاقته بالمعرفة دخل في الفلسفة، وكان بابا من أبوابها، وموضوعا من موضوعاتها، ويشهد لهذا الارتباط، قول الرسول الأعظم: " من علم وعمل أورثه الله علم ما لم يعلم " حيث جعل العمل سببا للعلم، تمام كالعلم الذي هو سبب معد للعمل، ويتفق هذا الحديث مع النظرية القائلة ان المعرفة تخضع للنشاط العلمي، كما يخضع العمل للمعرفة – مثلا – إذا تعلمت مهنة، وباشرت العمل بنفسك، ومضيت مستمرا في ممارستها تفتحت آفاق جديدة تدعوك إلى عمل جديد، وإذا تابعت حصلت لك معرفة أخرى، وهكذا إلى ما لا نهاية، فالعلم والعمل أشبه برجل يسير في ظلمة حالكة، وفي يده مصباح فالمصباح يضيئ له الجزء الأول من الطريق، فيقطعه الرجل بسلام، فإذا انتهى منه يصير المشي سببا لإضاءة الجزء الثاني، فيقطه الرجل، كما قطع الجزء الأول، وهكذا يحصل التفاعل بين متابعة السير والإضاءة، حتى النهاية فكل منهما سبب

ومسبب، وفاعل ومنفعل، فالضوء فاعل لأنه يهيئ للسير على الطريق، ومنفعل لان المشئ يهيئ لإضاءة الجزء التالي منه.
وقال الإمام علي مشيرا إلى ربط المعرفة بالتصوف: ان الله جعل الذكر جلاء للقلوب، تسمع به بعد الوقرة، وتبصر به بعد العشوة، وتنقاد به بعض المعاندة ". وقال: ان من أحب عباد الله اليه عبدا اعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن، وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه " فقد جعل اتصالا بين طاعة الله وبين المعرفة، كما ربط بين المعصية، وبين الجهل في قوله: " من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه ابدا ".
إلى غير ذلك من تعاليمه التي تربط بين كل صفة وما يناسبها من الصفات، فالفضائل عند الامام متآخية متشابكة يدعوا بعضها إلى بعض، وتطرد كل خلق ما يضاده من الاخلاق الرذيلة، تماما كالجسم القوي السليم يقاوم الأسقام، ويزداد قوة ونشاطا، وجاء في القرآن الكريم آية ١٧ من سورة محمد: " والذين اهتدوا زادهم هدى ".
أم الرذائل فهي كأمراض الجسم، يؤدي بعضها إلى بعض، قال تعالى في الآية ١٢٦ من سورة التوبة: " واما الذين في قلوبهم مرض فزادهم رجسا إلى رجسهم " ولما كانت تعاليم الامام متخمة بالحث على الزهد والتقوى، وتربط بين المعرفة ومجاهدة النفس، وكانت الدنيا عنده أحقر من عفطة عنز – كما قال – اجتذبته إلى نفسها كل فرقة من فرق التصوف، وانتسبت اليه مدعية انها تستقي من معينه، وتستمد من تعاليمه.

قال المستشرق جولد تسهير في كتاب " العقيدة والشريعة ":
" ان تقديس على أصبح عقيدة تحمس لها عدد من البيئات الصوفية، حتى تغلغلت أحيانا في ثنايا مذهبهم وتعاليمهم ".
اما المعرفة التي يؤدي إليها التصوف فهي معرفة السبب الأول لهذا الكون وأوصافه وأفعاله، ومعرفة اسرار العالم والحكمة المودعة في نظامه وجميع أشيائه، بخاصة معرفة حقيقة الانسان والغاية من وجوده، والوجهة التي يجب عليه أن يتجه إليها في حركاته وسكناته (١).

التوفيق بين الدين والتصوف:

وقد وجد بين المتصوفين فئة حاولت التوفيق بين التصوف والظواهر الدينية، كابن عربي، وعبد الرزاق القاساني، وابن فهد، وغيرهم، ومن الأمثلة على هذا التوفيق قول ابن عربي بان دين الاسلام وغيره من الأديان امر بالحب والإخاء، والحب يستدعي رفع الحواجز بين الناس، كل الناس، دون فرق بين المسلم والمسيحي، والوثني وغيره، وأعلن ابن عربي هذا الرأي بقوله:

---

(١) هذا قول الصوفية، اما نحن فنؤمن بأن التجرد عن الأهواء والاغراض، والاخلاص لله قوة وعملا يجر الانسان تلقائيا إلى الايمان بالله، والى الحكمة التي وصف الله بها الأنبياء الصالحين، وهي معرفة الخير والعمل به، ومعرفة الشر، والابتعاد عنه. واليه أشارت الآية: ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا.

لقد صار قلبي قابلا كل صورة * فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف * وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب انى توجهت * ركائبه فالحب ديني وايماني

وشطح بعض الصوفية القائلين بالاتحاد، ولم يقف عند حد، وألف بين الكفر والايمان، واعتبرهما سواء عند الله، وأعطانا هذه الصورة الشعرية، قال: الكفر والايمان كصفار البيضة وبياضها، يقوم بينهما حاجز لا يتجاوزانه، وحين طوى ذو الجلال البيضة تحت جناحيه اختفى الكفر والايمان، واتحدا في طائر واحد ذي جناحين (١).

وإذا صرفنا النظر عن النصوص الدينية، وافترضنا انها لا تؤيد ولا تفند التصوف، ونظرنا إلى اهتمام الأمم به منذ اقدم العصور، كالبراهمة والصابئة والبوذية والمانوية والمسيحية، لو فعلنا هذا لألفينا التصوف شرعة عالمية، وفلسفة انسانية، وهذا يدعونا إلى الظن ان لمجاهدة النفس وتزكية القلب اثرا معقولا، ونوعا من الارتباط بينه وبين المعرفة وكشف الحجب، فمن الحمق والجهل ان ننفي هذا الأثر والارتباط " ضربة واحدة " وندعي بطلانه جملة وتفصيلا، بخاصة أن العلم لا يقر الاحكام النهائية المطلقة سلبية كانت أو ايجابية.

---

(١) ان المساواة بين الكفر والالحاد تبتني على وحدة الوجود، فكل من قال بوحدة الوجود لا يرى فرقا بين الأديان، ولا بينهما وبين الالحاد.

لا تسنن ولا تشيع في التصوف:
ليس التصوف علما كالفقه، كي ينقسم المختلفون فيه إلى مذاهب، كما هو الشأن في اختلاف الأحناف والشافعية والمالكية والحنابلة، ولا هو أصل من أصول العقيدة، حتى تتعدد الفرق على أساس الاختلاف فيه. ان الفارق الوحيد بين السنة والشيعة هو نص النبي بالخلافة على الإمام علي، فمن أثبته فهو شيعي، ومن نفاه فهو سني، ولا علاقة للتصوف بشتى معانيه بذلك، فالشيعة منهم المتصوف وغير المتصوف، وكذلك السنة، والمتصوفون منهم السني، ومنهم الشيعي، ولكن متصوفي السنة أكثر من متصوفي الشيعة، فقد نقل المستشرق نيكلسون عن عبد الله الأنصاري أنه قال: كان من الفي شيخ صوفي عرفتهم شيعيان اثنان لا غير.
وبهذا يتبين مكان الخطأ فيما نقل عن أبي المظفر الإسفراييني من أن التصوف مذهب من مذاهب أهل السنة، كما يتبين الخطأ في قول من عد المتصوفة فرقة مستقلة عن سائر الفرق الاسلامية، فقد كان الغزالي صوفيا أشعريا، وابن سينا صوفيا اماميا، وغيرهما صوفيا معتزليا، وكان ابن عربي يدين بالحب الذي يشمل جميع الأديان، وقد أسلفنا ان التصوف وجد في جميع الأديان من اقدم العصور، اجل، ان الطريق الصوفية وأسلوبهم في الاستدلال، واكتساب المعارف يختلف عن طريق الفلاسفة والمتكلمين، أما عقائدهم فقد تتفق معهم، وقد تختلف.

وإذا كانت حياة التصوف حياة المجاهدة والتقوى والتأمل فان الشيعة اغنى الناس جميعا في هذا التراث، فقد رووا عن أئمتهم من المواعظ والحكم والأدعية والمناجاة ما لا يبلغه الاحصاء، وننقل منها قطعة للامام زين العابدين تصور موقفه مع خالقه سبحانه، ودفاعه عن نفسه إذا أراد الله عقابه وعذابه، ولسنا نجد في كلمات الصوفية على كثرتها وتنوعها ما يشبه كلام هذا الامام العظيم، فان كلمات الصوفية كلها أو جلها من نوع الحب والوجد وبث الأشواق، أو الغزليات والخمريات، أو الاعراض عن الحياة والملذات، أو الترنيم والتنغيم، أو الألغاز والطلاسم، إلى غير ذلك.

أما كلمات الإمام زين العابدين فإنها تقيض بمعان لم يهتد إليها الصوفيون ولم تخطر لهم على بال، ولم يبلغه أحد من قبل ومن بعد، قال مخاطبا ربه إذا أراد حسابه وعقابه:

" الهي، وعزتك وجلالك لأن طالبتني بذنوبي لأطالبنك بعفوك، ولأن طالبتني بلؤمي لأطالبنك بكرمك، ولأن أدخلتني النار لأخبرن أهلها بحبي لك..

الهي، ان كنت لا تغفر الا لأوليائك وأهل طاعتك، فإلى من يفزع المذنبون، وان كنت لا تكرم الا أهل الوفاء بك، فبمن يستغيب المسيئون..

الهي، انك أنزلت في كتابك العفو وأمرتنا أن نعفوا عمن ظلمنا، وقد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا، فإنك أولى

بذلك منا، وأمرتنا ان لا نرد سائلا عن أبوابنا، وقد جئتك سائلا فلا ترد عن بابك، وأمرتنا بالاحسان إلى ملكت ايماننا ونحن أرقاؤك، فاعتق رقابنا من النار.. " ثم قال مدافعا بأسلوب آخر:

" الهي، اني امرؤ حقير، وخطري يسير، وليس عذابي مما يزيد في ملكات مثقال ذرة، ولو أن عذابي مما يزيد في ملكك لأحببت أن يكون ذلك لك، ولكن سلطانك أعظم، وملكك أدوم من أن تزيده طاعة المطيعين، أو تنقصه معصية المذنبين... ".

أرأيت دفاعا أقوى من هذا الدفاع؟ أو حجة أبلغ من هذه الحجة؟!.. ما ذا يصنع الله بعقاب الناس ما دام العفو لا ينقص من ملكه، والعذاب لا يزيد من سلطانه؟!.. وقد احتج الامام بنفس الشريعة التي كتبها الله على نفسه وعلى الناس أجمعين، حيث قال عز من قائل: " كتب ربكم على نفسه الرحمة... يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. ان الله يغفر الذنوب جميعا. انه غفور رحيم " ونحن معاشر المذنبين لا نطلب من الله الا الرحمة والغفران.. لقد وضع الإمام زين العابدين النقاط على الحروف، وقدم الأرقام للحاكم العظيم مع التقديس والتعظيم، وإذا كان قول الله حقا وصدقا فان احتجاج الامام جاء وفقا لهذا الحق. وما ابعد

ما بين هذا الأسلوب الذي يفتح للناس باب الرجاء، وبين طريقة مالك بن دينار الصوفي الذي يسد باب الرحمة والرجاء!..
قال له قوم وقد انقطع عنهم الغيث: ادع لنا ربك يسقينا.
فقال: انكم تستبطئون المطر، واستبطئ الحجارة!..
نحن والتصوف:
ونتساءل: هل في هذا التراث الضخم الذي بين أيدينا من التصوف ما يسهل لنا الطريق إلى ما نبتغيه من الخير والصلاح؟ هل باستطاعتنا ان نستنتج من التصوف ما يحمينا من الانحرافات والعثرات؟
الجواب:
ان التصوف يعتني عناية خاصة بالسلوك العلمي، ويهتم بتهذيب النفس، وصلة الانسان بخالقه، ويتجه به وجهة روحية، ويدفعه إلى عمل الخير لوجه الخير، لا رغبة في مال أو جاه، والى ترك الشر للشر، لا خوفا من السوط والسيف، ومعنى هذا ان مبدأ التصوف يقر بوجود الفضيلة كحقيقة واقعة لها وجود مستقل عن المشاعر والاستحسانات والرغبات، ومعناه أيضا ان التصوف من مقومات الثقافة والحضارة التي عاشها الأجداد والآباء، فعلينا، والحال هذه، أن ندرسه على أسس جديده بجد وعناية، ونقيمه فوق النظريات، والأفكار التي ترشدنا إلى الطريق القويم، وتسير بنا إلى الامام.
وإذا كان البعض لا يؤمن كالصوفية بالحدس والكشف فنحن

نؤمن بأننا في أشد الحاجة إلى الحلب والإخاء، والى الشعور بالمسئولية، وتطبيق القيم الروحية، ونبغي التوصل إلى ذلك بكل وسيلة، بالقصة والمسرحية والموسيقي، والسينما، والوعظ والارشاد، وما إلى ذلك من المؤثرات الدينية، والوسائل الفنية التي نتخذ منها رادعا عن الموبقات والانحرافات، وان التصوف أجدى وانفع من هذه الأجهزة، واي شئ أبلغ في الايمان والتقوى من قول الإمام علي: " اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فن انه يراك "؟

وأي قول أوقع في النفس من قول ابن عربي: " أدين بدين الحب "، وقول جلال الدين الرومي: " ليس حب الناس الا نتيجة لحب الله "؟! وأي شئ أقوى في الشعور بالمسئولية من قول أويس القرني الذي كان يتصدق بما يزيد عن مأكله وملبسه، ثم يخاطب الله بقوله " اللهم من مات جوعا، فلا تؤاخذني به، ومن مات عريانا فلا تؤاخذني به " (١).

اما الذين لا يشعرون بالمسؤولية، ولا يقولون ويفعلون الا بدافع الربح والتجارة، أما هؤلاء فدواؤهم أن يجاهدوا أنفسهم، ويراقبوها، حتى تصبح مأمورة غير آمرة، وتابعة غير متبوعة، وان يوقنوا عمليا، لا نظريا بأنهم مسؤولون امام الله، ومحاسبون على كل كبيرة وصغيرة، ومجزيون باعمالهم،

---

(١) شهد له رسول الله بالجنة دون ان يراه، وقال يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومصر، وقال له عمر: امر النبي ان نبلغك سلامه. حضر أويس مع الامام في صفين، واستشهد بين يديه، وهو من كبار التابعين.

ان خيرا فخير، وان شرا فشر، والتصوف كفيل بذلك كله كفيل بان يزيل من النفوس والأذهان الفكرة الشخصية، ويحل مكانها فكرة القانون والعدالة، لقد اعتدنا ان نقول: فلان عظيم، لأنه وزير أو نائب أو مدير، ولأنه يوظف ويعزل، ويرفع ويضع، ولا بد للمصلحين ان يبذلوا كافة الجهود لا زالة هذه الفكرة، واستبدالها بفكرة العدالة والكفاءة، وانهم لواجدون في التصوف خير الوسائل وأجداها إلى هذه الغاية. وبالتالي، فإذا كانت التربية نظريات وأفكار، فان التصوف بمعناه الصحيح تطبيق وعمل.

الأفلاطونية الحديثة

الحب الإلهي:

قال احمد امين في الجزء الرابع من ظهر الاسلام ص ١٥٠:

" للتصوف ركنان: الزهادة، وحب الله ".

وقد أسلفنا أن الزهد (١) غير التصوف، حيث يعتبر في التصوف مجاهدة النفس، وترويضها دون الزهد، فإنه يتحقق بمجرد الاعراض، عن الدنيا وملذاتها، اما الحب الإلهي فقد وجد من بين الصوفية المسلمين من ادعاه، ودعا اليه، وعرفه بعضهم بأنه الميل الدائم بالقلب الهائم، وقال آخر: انه ايثار المحبوب على جميع المصحوب. وثالث: انه محو المحب بصفاته، واثبات المحبوب بذاته. ورابع: انه هتك الأستار، وكشف الاسرار.

---

(١) فرق ابن سينا في كتاب " الإشارات " بين الزاهد والعابد والعارف، فالزاهد يترك الدنيا طلبا للآخرة، والعابد يعمل في الدنيا من اجل الآخرة، فغاية كل منهما واحدة الا ان الزاهد سلبي، والعابد ايجابي، اما العارف فإنه يجاهد نفسه ويروضها طلبا للكمال.

وخامس: انه لذة في المخلوق، واستهلاك في الخالق. وسادس: انه أغصان تنبت في القلب، وما أشبه ذلك.

واعترف باني لم افهم شيئا من حب الله بهذا المعنى، اما حبه بمعنى طاعته والانقياد له فمعقول ومقبول، وقد نص عليه القرآن الكريم في الآية ٥٣ من سورة المائدة:

" فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ".

ولكن الحب بهذا المعنى يرجع إلى مجاهدة النفس، وتحليها بالكمال والفضيلة، وعليه فلا يكون قسما من التصوف، ولا ركنا له.

وقرأت كثيرا مما كتب في هذا الموضوع قديما وحديثا، واطلعت أخيرا على كتاب " الحب الإلهي في التصوف الاسلامي " رقم ٢٤، نشرته المكتبة الثقافية في القاهرة التابعة لوزارة الثقافة والارشاد القومي، وقد بلغت صفحاته ١٣٧، ورجعت اليه أكثر من مرة املا ان اخرج منه بمحصل يمدني فيما اكتب لهذا الفصل، ولكن لم أحصل على جدوى، ولا شئ أصعب علي من أن اكتب في موضوع لا أعقله ولا ادركه، لذا صرفت الكلام عن الحب إلى الأفلاطونية الحديثة، لأنها أحد منابع التصوف:

ونمهد للأفلاطونية الحديثة بالإشارة إلى نظرية المثل عند أفلاطون أستاذ المعلم الأول، فقد نسب اليه القول بان للموجودات صورا مجردة في عالم الاله، وتسمى هذه الصور

بالمثل الإلهية، ومن خصائصها انها لا تفسد ولا تندثر، فهي أبدية أزلية، والذي يفسد ويندثر هذه الكائنات المشاهدة، وقد فسرت هذا المثل بتفاسير، شتى متناقضة متضاربة، نختار منها تفسير الفيلسوف، الشهير محمد بن إبراهيم المعروف بالملا صدرا، هذا مع الاعتراف بان اختيارنا لتفسيره لا يستند إلى دراسة وافية، ثم المقارنة بين ما قيل حولها، واختيار الأصح والأرجح، وانما اخترنا قول هذا الفيلسوف لشهرته، والثقة بمكانته، وتبحره في هذا الفن، فنحن في مسألة المثل، الأفلاطونية مقلدون لا مجتهدون، وتتخلص أقوال الملا صدرا، كما جاءت في الجزء الثاني من السفر الأول من كتاب الاسفار.

بأن لكل نوع من أنواع الكائنات افرادا عديدة، منها هذه الافراد المشاهدة التي يعرض لها الفساد والعدم، ومنها فرد واحد تام كامل يوجد في عالم الجبروت والابداع، أي عالم ما وراء المادة، وهذا الفرد الكامل، لا يفتقر إلى شئ، ولا يتغير ولا يتبدل، وهو الأصل والمبدأ لسائر افراد النوع التي تفسد وتزول.

وان قال قائل: كيف يكون للنوع فردان: أحدهما كامل قائم بنفسه، والآخر ناقص قائم بغيره؟! وهل يمكن وجود قاسم مشترك يجمع بين شيئين متناقضين؟

قال صاحب الاسفار في جوابه: لا مانع ابدا أن يصدق العام على افراد تتفاوت نقصا وكمالا ما دام الكمال في الحقيقة والجوهر، والنقص في العرض والنسبة إلى المحل.

الأفلاطونية الحديثة:
في القرن الثاني والثالث الميلادي وجد فلاسفة شرقيون، إسكندريون وسوريون كان همهم واهتمامهم ان يكونوا دينا مفلسفا بآراء أفلاطون، فالدين من عندهم، وفلسفته من أفلاطون الذي لا يعرف عن هذا الدين كثيرا ولا قليلا، وأشهر هؤلاء افلوطين المصري (ت ٢٦٩ م) وتتخلص فلسفته بأن وراء المادة. موجودا أولا واحدا من جميع جهاته، وعن هذا الموجود الواحد صدر قهرا العقل الكلي، وهذا العقل يحوي في ذاته مثل جميع الموجودات، ثم صدر عن العقل الكلي النفس الكلية، وعنها صدرت جميع الموجودات، ثم صدر عن العقل الكلي النفس الكلية، وعنها صدرت جميع الموجودات بواسطة النفوس الجزئية وفقا للمثل الموجودة في العقل الكلي، وهذه الأربعة، اي الأول الواحد، والعقل الكلي، والنفس الكلية، والموجودات متشابكة مترابطة متراصة تشترك في جميع الخصائص، ومن هنا كان افلوطين مسوقا إلى وحدة الوجود، أراد ذلك، أو لم يرد، ويؤيد ذلك ما نسب اليه من أن الموجودات المادية تتحول في النهاية إلى الوجود الأول، وتفنى فيه، تماما كالبخار الذي تحول من الماء، ثم يتحول اليه.
والمعرفة عند افلوطين تنحصر بالذوق والكشف، اي بالمعرفة القلبية، ولا قيمة لغيرها مهما كان نوعها، ومن أقواله " يجب علي ان ادخل في نفسي، ومن هنا استيقظ، وبهذه اليقظة

اتحد بالله " وقال: " يجب ان احجب عن نفسي النور الخارجي، لكي أحيا وحدي في النور الداخلي " وقال أيضا: " اني ربما خلوت إلى نفسي "وجعلت بدني جانبا، وصرت كأني جوهر مجرد بلا بدن، فأكون داخلا في ذاتي راجعا إليها خارجا من سائر الأشياء، فأكون العلم والعالم والمعلوم جميعا ".

ولما كان صدور العالم عن الأول بالطبع لا بالإرادة فلا يسمى هذا الصدور فعلا بل اشعاعا، وانبثاقا وفيضا مهما شئت فعبر، تماما كما يشع ضوء الشمس من الشمس، وكما يبعث اللهيب الضوء والنور (١).

وقال فورفوربوس (ت ٣٠٤ م) وهو تلميذ افلوطين: " ان الغاية من الفلسفة هي الخلاص من الشرور بمجاهدة النفس، والقضاء على شهواتها، وبهذه المجاهدة نتوصل إلى معرفة الله ".

وإذا تأملنا ما تحويه الأفلاطونية الحديثة من وحدة الوجود، وفناء الموجودات ورجوعها إلى الموجود الأول، ومجاهدة النفس، ثم الكشف والمعرفة القلبية ظهر لنا جليا أن هذه الأفلاطونية من أهم المنابع للتصوف الاسلامي.

---

(١) قال يوسف كرم في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٩٧ الطبعة الرابعة: " ترجمت بعض رسائل افلوطين إلى اللاتينية في القرن الرابع، فوجد فيها القديس اوغسطين عونا كبيرا، ووضع الأفلاطونية المسيحية " اي ان الأفلاطونية الحديثة مصدر للأفلاطونية المسيحية.

التأويل
التأويل هو تفسير اللفظ بمعنى لا يدل عليه الظاهر، بحيث يدل اللفظ على شئ، ويفسر بشئ آخر، كتفسير الاسلام بالدار، لأنه جامع لأهله، والجنة بالمأدبة، لأن فيها ما تشتهي الأنفس، فقد جاء في الحديث الشريف " ان الله سبحانه جعل الاسلام دارا، والجنة مأدبة والداعي إليها محمد ".
وبعد ان اتفق المسلمون كلمة واحدة على وجوب العمل بالكتاب والسنة اختلفوا: في أنه هل يجب الوقوف عند ظواهر النصوص الواردة فيهما، أو يجوز تأويل اللفظ بما يخالف الظاهر؟
فمنهم من قال بوجوب الوقوف عند ظاهر اللفظ مطلقا، حتى ولو خالف حكم العقل، ومنهم من قال بجواز التأويل، بل بوجوبه في بعض الحالات، وذلك إذا تصادم الظاهر مع العقل، ومنهم من قال بجواز التأويل مطلقا، ولو كان الظاهر موافقا لحكم العقل، وهؤلاء جماعة من الصوفية، ومن اجلهم عقدنا هذا البحث.

الوقوف عند الظاهر:
ان الذين أوجبوا الوقوف عند ظواهر النصوص ذهبوا إلى أن الحسن والقبح ومعرفة الله، كل ذلك يجب بالشرع لا بالعقل، وقالوا أيضا: ان الانسان مسير لا مخير اهمالا لحكم العقل، واخذا بظاهر الآية ٩٦ من الصافات: " الله خلقكم وما تعلمون " والآية ١٦ من الرعد: " الله خالق كل شئ " واتفقوا أيضا على أن الله يرى بالمشاهدة، وان له سمعا وبصرا لظاهر الآية ١١ من الشورى: " وهو السميع البصير ".
ثم اختلف هؤلاء الظاهريون فيما بينهم، فمنهم، وهم السنيون الحرفيون، ويعبر عنهم بالحشوية، وبأهل السلف قالوا: ان لله سمعا وبصرا، تماما كسمعنا وبصرنا، وانه يشاهد بالعيان في الدنيا والآخرة. ومنهم، وهم السنيون الأشاعرة قالوا: ان الله يرى في الآخرة، لا في الدنيا، وان سمعه وبصره يليقان بذاته، وليسا كسمعنا وبصرنا.
ومهما يكن، فان كلا من الحشوية والأشاعرة يثبت لله جميع الصفات، كما وردت في ظاهر القرآن والسنة دون تأويل وتصرف، وإذا اختلفا في شئ ففي الأسلوب فقط، اما الوقوف عند ظاهر النص فمحل وفاق بينهم، ونقل عن الأشاعرة " ان مذهبهم يعتمد على الوحي أكثر من اعتماده على العقل، بل صرح الأشعري بأن النظر العقلي المستقل عن الوحي لا يجوز أن يؤخذ طريقا إلى العلم بالشؤون الإلهية، وهو - أي الأشعري - وان

رأى أن العقل في وسعه أن يدركه الله الا أن هذا العقل عنده ليس الا أداة للادراك، اما الطريق الوحيد لمعرفة الله فهو الوحي، ومن هنا قيل: ان الأشعري لم يكن مجددا مبتكرا بقدر ما كان جامعا للآراء موفقا بينها، بل إن العقل عند الأشاعرة لا يوجب شيئا من المعارف، ولا يقتضي تحسينا ولا تقبيحا، ومعرفة الله بالعقل تحصل، وبالسمع تجب " (١).

ومن الشواهد على أن الأشاعرة لا يعتبرون العقل انهم يجيزون على الله أن يأمر بما لا يريد، وينهي عما يريد مستندين في ذلك إلى أنه تعالى نهى آدم أن يأكل من الشجرة، ثم قضى عليه أن يأكل منها، وأمر إبليس أن يسجد لآدم، ثم حال بينه وبين السجود (٢).

واختصارا أن العقل لا شأن له ولا وزن عند السنة الحرفيين والسنة الأشاعرة، فهو لا يدرك الخير والشر، والحسن والقبح ولا الأسباب والمسببات بين الاحداث الطبيعية، ويخير أن يرى الله عيانا، وأن يأمر بما يكره، وينهي عما يحب، وان يكلف بما لا يطاق، وان يعذب المؤمن الطيب، ويثيب الكافر الخبيث، وما إلى ذلك، من الأقوال والآراء التي تدل بصراحة ووضوح على الفصل بين العقل والشرع.

---

(١) كتاب " أسس الفلسفة " لتوفيق الطويل ص ٣٩٥ طبعة ١٩٥٥.

(٢) " المذاهب الاسلامية " لأبي زهرة ص ١٩١.

تقديم العقل على الظاهر:
قال المعتزلة: إذا تعارض ظاهر النص مع العقل وجب تأويله بما يتفق مع منطق العقل، وعلى هذه السبيل قالوا: ان الحسن والقبح يدركان بالعقل لا بالشرع، وأن الانسان مخير لا مسير، وان الله يرى بالبصيرة لا بالبصر، وان سمعه وبصره كناية عن علمه تعالى، وان معرفة الله تجب عقلا لا شرعا.
وقول المعتزلة هذا يتفق كل الاتفاق مع قول الإمامية بأن الشرع والعقل لا يتصادمان بحال، لان العقل شرع من الداخل والشرع عقل من الخارج، والعقل يهتدي بالشرع، والشرع يعرف بالعقل، فهما أبدا ودائما متحالفان متآزران، كل منهما يحكم بما يحكم به الآخر، وقد روى الشيعة عن أئمتهم أن لا دين له لا عقل له، وانه ما عبد الله أحد بشئ مثل العقل (١) وكيف يطيع الانسان أوامر الله ونواهيه بدون العقل؟! ثم كيف يتنافى العقل مع الدين ويفصل بينهما، وقد امر الدين باتباع العقل، قال الله تعالى: " فاعتبروا يا اولي الألباب " وقال: " ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون " وقال في آيات كثيرة " الا يعقلون؟!.. ألا يتفكرون، وما إلى

---

(١) نقل الدكتور توفيق الطويل في كتاب " أسس الفلسفة " ص ٢٩٠ عن " كارادى فو " ما نصه بالحرف الواحد " التشيع رد فعل لفكر حر " طليق يقاوم جمودا عقليا بدا في مذهب أهل السنة "، ثم قال الدكتور: " كان للشيعة فضل ملحوظ في اغناء المضمون الروحي للاسلام، فان بمثل حركاتهم الجامحة تأمن الأديان التحجر في قوالب جامدة.

ذلك من الآيات والأحاديث التي تعتبر العقل أساسا للدين، قال محسن الفيض (١) في كتاب " عين اليقين ": " العقل كالأساس " والشرع كالبناء، ولن يثبت بناء من لم يكن أساس، ولم يغن أساس ما لم يكن بناء ". واشترطوا لصحة التأويل شرطين أساسيين: الأول أن لا يستقيم المعنى لو بقي الظاهر، كما هو.

الثاني أن يكون بين المعنى الظاهر، والمعنى الذي يؤول به اللفظ مناسبة وموافقة، ومثاله تفسير اليد بالقدرة في قوله تعالى: " يد الله فوق أيديهم " لان اليد مظهر للقدرة.

الظاهر والباطن:

قال جماعة من الصوفية: ان للنصوص الشرعية ظاهرا، وباطنا، والظاهر هو النص الجلي الواضح، تماما كالصورة المحسوسة الملموسة، والنص الخفي هو الدقيق الغامض كالأرواح المحجوبة عن العيان، وقد جاء في الأحاديث النبوية ان للقرآن ظهر أو بطنا، وان لبطنه سبعة ابطن، وفي حديث آخر سبعين بطنا، اما السبب لتعدد البطون فهو ان أحوال الناس مختلفة متباينة، وعلى الحكيم ان يخاطب المستمعين حسب أفهامهم وواقعهم، فمنهم من يخاطب بالظاهر فقط، لأنه لا يفهم سواه، ومنهم من يخاطب بالباطن، لأنه يدركه ويفهمه، ثم إن أهل الباطن على مراتب في عمق الفهم وبعد الادراك، فمنهم من

---

(١) من علماء الإمامية، وله مؤلفات كثيرة الفلسفة والاخلاق والمناقب وغيرها، توفي سنة ١٠٩١ ه.

يخترق ادراكه حجابا واحدا، ومنهم من يخترق أكثر من حجاب إلى سبعين، والمدير الحكيم يخاطب كلا حسب ما بلغ اليه من درجات الفهم والادراك.

وأيضا ان الله سبحانه خلق عالمين: عالم الشهادة، وهو عالمنا هذا الذي نحياه، ونعيش فيه، وعالم الغيب، وهو عالم ما وراء الطبيعة، وكل شئ في عالم الشهادة، له أصل في عالم الغيب، وهذا الأصل هو الروح والحقيقة واللب الموجود في عالم الشهادة، وهذا الموجود هو قشر لذلك اللب، وجسد لتلك الروح، وكما أن القشر ظاهر، واللب باطن، كذلك الموجودات في هذا العالم هي ظواهر وإشارات إلى الباطن الذي هو اللب والحقيقة، ومن اجل هذا قيل: ان الدنيا طريق الآخرة.

الجواب:

ان هذا الزعم لا يستند إلى دليل، فان الله سبحانه قد كلف الناس جميعا بتكليف واحد ولم يفرق بين فئة وفئة ولا بين فرد وفرد، وخاطب الجميع بالقرآن الكريم وأوجب عليهم العمل به، ومحال ان يأمرهم بأشياء لا يفهمونها ولا يهتدون إليها، كيف وقد وصف الله القرآن بأنه عربي مبين؟! قال في الآية ١٠٣ من النحل: " وهذا لسان عربي مبين " وفي الآية ٢٨ من الزمر، " قرآنا عربيا غير ذي عوج " إلى غير ذلك من الآيات، هذا إلى أن في القرآن آيات لا يمكن ان يكون وراء الظاهر

شئ كقوله تعالى " محمد رسول الله " وقوله: " قل هو الله أحد ".

ومن مزاعم هؤلاء ان ظاهر الشرع لعامة الناس، وباطنه للخواص العارفين، فالعبادة كالصوم والصلاة لا تجب على الصوفي العارف، وانما تجب على العامة، لان الغاية من العبادة هي الوصول، ومتى وصل العارف فقد بلغ الغاية، وانتهى كل شئ، ولم يبق للوسيلة من اثر، فالدين ليس عقيدة يعتقدها الناس، ولا شعيرة يؤدونها بين مجموعة من الأحجار تسمى معبدا، وانما العقيدة هي الاعتقاد الحق بالله الذي يستلزم الانصراف الكامل عن الخلق، والمعبد الحق هو القائم في القلب المقدس.

عظة وعبرة:

ولهم في إشارات الظاهر إلى الباطن أقوال لا تخلو من عظة وعبرة، منها هذا الحوار الطريف الذي دار بين الجنيد (١) وبين حاج فرغ من حجه:

قال الجنيد للحاج: هل رحلت عن جميع ذنوبك حين رحلت عن دارك قاصدا بيت الله الحرام؟

الحاج: لا.

الجنيد: اذن أنت لم ترحل. ثم قال له:

وحين لبست ثوب الاحرام، هل خلعت صفات البشرية

---

(١) أحد أئمة الصوفية، توفي سنة ٢٩٧ ه.

عنك، وأنت تخلع ثيابك.
الحاج: لا.
الجنيد: اذن أنت لم تحرم، ثم قال له:
وحين وقفت بعرفة، هل عرفت الله حقا؟
الحاج: لا.
الجنيد: أنت لم تقف بعرفة. ثم قال:
وحين أفضت إلى المزدلفة، هل رفضت جميع الاغراض الجسدية؟
الحاج: لا.
الجنيد: أنت لم تفض إلى المزدلفة، ثم قال:
وحين طفت بالبيت، هل أدركت الجمال الإلهي في بيت الطهر؟
الحاج: لا
الجنيد: أنت لم تطف بالبيت، ثم قال:
وحين سعيت بين الصفا والمرؤة، هل أدركت الصفا والمرؤة؟
الحاج: لا
الجنيد: أنت لم تسع، ثم قال:
وحين جئت إلى منى، هل ذهبت عنك جميع المنى؟
الحاج: لا.
الجنيد: أنت لم تزر منى، ثم قال:
وحين نحرت القربان، هل نحرت الشهوات والغايات؟
الحاج: لا.

الجنيد: أنت لم تنحر، ثم قال:
وحين رميت الجمار، هل رميت أفكارك السوداء؟
الحاج: لا.
الجنيد: أنت لم ترم الجمار، وبالتالي، أنت لم تفعل شيئا.
ولست أخفي على القارئ ان هذا الحوار قد ترك في نفسي اثرا بالغا، من حيث لا أريد ولا اشعر، على الرغم اني من المؤمنين بوجوب الحج تعبدا على من استطاع اليه سبيلا، وان لم يتعظ من الله بواعظ، ويزدجر منه بزاجر، ولكني من المؤمنين أيضا بقوله عز من قائل:
" يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم – ٨٩ الشعراء "
وهكذا سائر العبادات، فان لكل ظاهر منها باطنا يقابله، فالصلاة ظاهرها الركوع والسجود، وباطنها الجذب والمعراج إلى الله، وحفظ القلب عمن سواه، وتذلل له لا لغيره، والطهارة ظاهرها غسل الأعضاء، وباطنها التطهير بالعلم، وما يستدعيه من الكمال، حتى قوله تعالى: " وثيابك فطهر " معناه وقلبك فطهر.
للتسلية:
وهنالك تأويلات وإشارات نذكرها للتسلية، مثل قولهم بان الألف في " ألم " إشارة الله، واللام إلى جبريل، والميم إلى محمد، وان قصة موسى وفرعون في القرآن تشير إلى صراع

النفس الامارة التي ترمز إليها لفظة فرعون، والنفس المطمئنة التي عبر عنها بلفظه موسى، وان معنى يذبحون أبناءكم، يذبحون فيكم الصفات الحميدة، ومعنى يستحيون نساءكم يستبقون الشهوات الحيوانية، وقالوا في تفسير قوله تعالى: " كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ": ان الانسان قبل ان يوجد كان صائما عن الأهواء، وبعد ان وجد كتب عليه ان يكون بعد وجوده، كما كان قبل وجوده!...

اما قول الرسول (ص) صوموا للرؤية، وافطروا للرؤية فمعناها امسكوا العقول عما يصرفها عن الله، فإذا رأيت الله فلا يضركم ان تأكلوا وتشربوا، وفسروا قوله تعالى: " انزل من السماء ماء فسالت أدوية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا " فسروا الماء بالعلم، والأدوية بالقلوب، والزبد بالضلال، إلى غير ذلك من الأوهام والتخيلات.

وقد يستحسن القارئ شيئا من هذا التفسير والتأويل، حيث يسمو بالانسان عن الظواهر والاشكال، ويكشف له عن أشياء جديدة وعميقة، ولكن الاستحسان شئ، ودلالة اللفظ شئ آخر، فقولك: النظام خير من الفوضى حق وحسن في نفسه، ولكن لفظة حجر وحديد لا تدل عليه من قريب أو بعيد.

العبادة تجارة:

وقال قائل منهم: يجب الغاء العبادات كلها من الأساس، فلا صيام ولا صلاة، ولا حج، ولا شئ على أحد ابدا أيا كان من الخاصة أو العامة، لأن هذه سبيل النفاق والرياء يتخذها المرتزقة وسيلة العيش، وأداة للكسب وشبكة للصيد!..

سمع هذا القائل، أو من هو على شاكلته مؤذنا يصيح على المأذنة، فقال له: سم الموت.

وفي الوقت نفسه سمع كلبا ينبح، فقال: لبيك وسعديك..

ولما سئل عن السبب قال: ان المؤذن ذكر الله بنفس ملوثة، واخذ الاجر على الاذان، ولولاه لم يتعرف على الله، ولم يذكره بشئ، اما الكلب فإنه سبح بحمد الله لا للأجرة، وبنفس طاهرة صافية، وسمع مرة اسم آدم، فقال: ومن آدم؟! هذا الذي باع ربه بلقمة!. وبعضهم كان يعطف على إبليس وفرعون، ويعتذر عنهما.

وليس من شك ان الكثير ممن عرفنا، وممن لم نعرف قد اتخذوا من الدين والعبادة حانوتا للتجارة (١) ولكن هذا ليس

---

(١) في جريدة الجمهورية المصرية عدد ١٧ شباط سنة ٦١ ان الولايات المتحدة جمعت اللصوص والمجرمين، وسلمتهم للقسيسين والرهبان، وأعطتهم الأموال باسم إغاثة اللاجئين، وتعليم الدين وأوعزت إلى رجال الدين ان يدربوهم على عمليات التخريب حتى إذا أتقنوها أرسلتهم الولايات المتحدة إلى كوبا، ليحدثوا الفوضى والاضطراب!.. واني اعرف " رجالا " يلبسون ثوب الدين، ويتلقون أوامر شيطانية من المتزعمين، ويعملون في الخفاء ما يلعنهم بهم أهل الأرض والسماء..

نقصا في العبادة كحقيقة دينية، وانما النقص في الذين يتاجرون بالدين، تماما كالذين يسيئون استعمال الحرية والسلطة والقانون والطب والأدب، وما إلى ذاك، فان وجودهم لا يستدعي الغاء التطبيب، واهمال الأدب، ولا يبرر الدكتاتورية والفوضى، ان المشكلة ليست مشكلة العبادة والمعابد، بل مشكلة المحترفين بها، ففيهم يكمن الداء، لا في العبادة، فيجب القضاء عليهم، لا عليها، والمريض لا يداوى بالقضاء عليه، بل بالقضاء على المرض.

التنسك
الأنبياء والأولياء:
جاء في كتب التفسير والمواعظ ان موسى كليم الله (ع) كان غالب قوته من نبات الأرض، وأوراق الشجر، وقد هزل حتى دق عظمه، وانهضم لحمه، وحتى بانت الخضرة من ظاهر بطنه، وحتى ناجى ربه سائلا متضرعا: " رب لما أنزلت إلي من خير فقير " قال الإمام علي بن طالب (ع): والله ما سأله الا خبزا يأكله.
وان عيسى روح الله (ع) كان يفترش الأرض، ويتوسد الحجر، ويقتات النبات، ويقول: دابتي رجلاي، وخادمي يداي، وفراشي الأرض، ووسادي الحجر، وسراجي القمر، ودفئي مشارق الأرض، وادامي الجوع، وشعاري الخوف، وليس لي ولد يموت، ولا امرأة تحزن، ولا بيت يخرب، ولا مال يلتف، أبيت وليس لي شئ، وأصبح وليس شئ، فانا اغنى ولد آدم.

وان محمدا رسول الله (ص) لم يشبع هو وأهل بيته غدوة الا جاعوا عشية، ولم يشبعوا عشية الا جاعوا غدوة، قالت عائشة، كان يأتي علينا أربعون ليلة لا نوقد في بيت رسول الله نارا ولا مصباحا. فقيل لها: فيم كنتم تعيشون؟ قالت: بالأسودين: التمر والماء. ودخل عمر على رسول الله (ص) فوجده على حصير قد اثر في جنبه، فكلمه في ذلك. فقال: مهلا يا عمر، أتظنا كسروية؟!.

اما علي بن طالب فكان كما قال عبد الله بن عباس: كانت الدنيا أهون عليه من شلح نعله: وكانت نعله من ليف لا تساوي كسر درهم، قال ابن عباس: دخلت على أمير المؤمنين، وهو خليفة، فوجدته يصلح نعله، فقلت له: ما ذا تصنع؟!. دعنا من هذه، فلم يكلمني حتى فرغ، ثم ضممهما، وقال: قومهما. قلت: لا قيمة لهما. قال: قومهما على ذلك. قلت: كسر درهم. قال: والله لهي أحب إلى من امركم هذا الا ان أقيم حقا، أو ادفع باطلا. وقال سويد بن غفلة: دخلت على أمير المؤمنين بعد ما بويع بالخلافة: فوجدته جالسا على حصير صغير، وليس في البيت غيره. وكان يأتيه المال فيوزعه على الناس، ولا يبقي لنفسه شيئا، ثم يحمل مساحته، وينطلق بها إلى العمل في الأرض، وكذا زهد في الدنيا جماعة من الأصحاب والتابعين وأكابر الدين.

تساءل:

ونتساءل: لماذا تنسك الأنبياء، ومن سار سنتهم من

الأئمة والأولياء؟ لماذا زهدوا في الدنيا، ورضوا منها بالكفاف، أو بما دونه؟ هل لأن التنسك حسن وخلق كريم، يطلب لذاته كغاية لا كوسيلة إلى غيره؟ أو ان الأنبياء والأولياء تنسكوا، لأن الدنيا ليست بالشئ، ما دامت ممرا لا مقرا، أو " كمنزل راكب أناخ عشيا وهو في الصبح راحل " فهي، وهذه حالها، لا تستأهل العناية والاهتمام، أو انهم تنسكوا لأن التنسك يفتح لهم أبواب المعرفة إلى حقائق الغيب وعالم المكوث، كما يقول أصحاب التصوف النظري، أو لأنهم أرادوا أن يقدروا أنفسهم بالضعفاء والبؤساء؟..

وبديهة ان افعال الأنبياء ليست كافعال الناس تفتقر إلى أدلة تبررها، بل هي بنفسها الحجة والدليل والمقياس الذي تقاس به الحقائق، ويعرف الخطأ من الصواب، هي الهدي والنور الذي يهدي للتي هي أقوم.

الجواب:

ان الزهد والتنسك غير مطلوب ولا محبوب في ذاته، فقد نهى الله سبحانه عن حرمان النفس مع القدرة والاستطاعة، فقال عز من قائل: " ولا تنسى نصيبك من الدنيا " وقال: " لا تحرموا طيبات ما أحل الله " وقال: " قل من حرم زينة الله التي اخرج لعبادة والطيبات من الرزق " وقد تعوذ النبي (ص) من الفقر، كما تعوذ من الشيطان، وقال علي (ع) لولده محمد:

يا بني اني أخاف عليك الفقر، فاستعذ بالله منه، ولا شئ أدل

على أن الزهد ليس بالمكانة القصوى عند أئمة العلم والدين من قول الإمام الباقر: " أعلى مراتب الزهد أدنى مراتب الورع ".
واما وصف الدنيا بأنها حلم وممر فلا يستدعي اهمالها وعدم العناية بها، وإذا كانت حلما فلتكن حلما عذبا لا عذابا، وممرا سهلا لا عسر فيه، وإذا كانت لا تعادل عند الله شيئا، لأنه في غنى عنها فنحن في أشد الحاجة إليها، لأننا منها، وهي منا، ومن هنا كان لإغاثة الملهوف وعمل المبرات والخيرات المنزلة الأولى عند الله، وكان أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة. ان في الانسان، أي انسان - ولو معصوما - رغبة ذاتية في الاستمتاع بالحياة وملذاتها، نقل صاحب سفينة البحار في مادة " كبد " عن كتاب مصباح الأنوار ان أمير المؤمنين عليا اشتهى كبدا مشوية في خبزة لينة، فذكر ذلك لولده الحسن، فصنعها له، وكان صائما، فلما أراد ان يفطر قدمها اليه، وما ان مد يده، حتى وقف سائل في الباب، فقال: يا بني احملها اليه. ومن ذا الذي لا يريد أن تكون له زوجة شابة جميلة عفيفة موافقة، تقدم له طبقا فيه ما لذ وطاب؟!.
ان هذا وما اليه ليس محظورا، ولا مكروها، وانما المحظور ان تأخذ ما ليس لك بحق، وان تتنعم على حساب غيرك.
وأما ان الأنبياء تنسكوا توصلا إلى معرفة الحقائق فبعيد عن الصواب، لأنهم في غنى عن ذلك ما دام الوحي ينزل عليهم من السماء تلقائيا بدون عملية التفكير، ولا رياضة النفس التي

ان أنتجت فلا تنتج يقينا كالوحي الذي لا يقبل الشك والريب. فلم يبق لزهدهم وتنسكهم من سبب الا الرغبة في المساواة بينهم وبين المستضعفين والمحرومين، والا الثورة على الذين لا يعبئون باي من قيود الدين والاخلاق. ان الانسان يندفع بفطرته نحو السعادة بشتى معانيها، سواء في ذلك العارف المخلص وغير المخلص، والفارق الوحيد بين الاثنين ان المخلص يحترم هذا الدافع والشعور عند غيره، ويفسح له مجال العمل. والسعي لتحقيق هذه السعادة، بل يجاهد، ويكافح، ليحقق الخير للجميع بدرجة متساوية بين الناس جميعا، فالسعادة في نظره امر عام لا خاص، فإذا لم تتحقق بمعناها الشاكل الكامل انصرف عن الاهتمام بنفسه، وساوى الضعفاء في بؤسهم وشقائهم، اما الانتهازي المحترف فعلى العكس، لا يرى السعادة الا في الاستئثار والاحتكار.

وبعبارة ثانية ان الخيرين ينظرون إلى جميع الناس كأسرة واحدة في بيت واحد، يستوون في الهناء والشقاء، فان استطاعوا ان يحققوا السعادة للجميع فذاك ما يبتغون والا قدروا أنفسهم بالضعفاء. قال العلاء بن زياد الحارثي للإمام علي (ع)، وكان من أصحابه، قال له: أشكو إليك أخي عاصما. قال: ما له؟ قال: لبس العباءة، وتخلى عن الدنيا. قال: علي به. فلما جاء، قال له: يا عدو نفسه، لقد استهام بك الشيطان، اما رحمت أهلك وولدك؟! أترى الله أحل لك الطيبات، وهو يكره ان

تأخذها؟! أنت أهون على الله من ذلك.
قال عاصم: يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك، وجشوبة مأكلك. قال: ويحك، اني لست كأنت، ان الله فرض على أئمة العدل ان يقدروا أنفسهم بضعفة الناس، كيلا يتبيع بالفقير فقره، اي يهيج به ألم الفقر فيهلكه. وقول الإمام " استهام بك الشيطان " يدل على أن التنسك مكروه الا لغاية حميدة، كالمساواة وما إليها.
هذي هي فلسفة الزهد المرغوب فيه، انه نظام المساواة يطبقه المخلصون على أنفسهم بالافعال قبل الأقوال، وهو في الوقت نفسه رد فعل لترف المترفين، واحتجاج على من يتنعمون على حساب المظلومين. كان أويس القرني، وهو امام الصوفية وسيدهم، كان يتصدق بما يزيد عن مأكله وملبسه، ثم يخاطب الله بقوله: " اللهم من مات جوعا فلا تؤاخذني به، ومن مات عريانا فلا تؤاخذني ".
وليس عمل أويس هذا تضحية، وكفى، بل وحجة دافعة تدين المحتكرين بقتل من يموت جوعا، وعريا.. وكان أويس من التابعين أدرك الصحابي الجليل أبا ذر الذي ثار على تصرفات عثمان في أموال المسلمين، واسراف معاوية في البذخ، وبناء الدور والقصور، وبهذا يتبين ان التصوف الاسلامي نشأ أول ما نشأ احتجاجا على الأثرياء الذين يكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقونها في سبيل الله، ثم تطور مع الزمن إلى تصوف نظري،

وجعله سببا من أسباب المعرفة، ثم إلى الاتحاد والحلول، ثم إلى حلقات الذكر، ولبس المرقعات، والاستجداء، وشرب الأفيون، وما إلى ذاك.

الشواهد:

ومن الشواهد على أن التصوف كان عند الصفوة الأخيار ثورة على حكام الجور والطبقة المستغلة جهاد أبي ذر وكفاحه ضد الحاكمين في عهده، ومنها ما جاء في ترجمة الجنيد انه " كان اللواء الذي ارتفع لتنتظم حوله كتائب المؤمنين المجاهدين المناضلين ضد الانحلال والتخاذل والمادية التي بدأت تطغي على المجتمع الاسلامي (١) " ومنها وصايا الصوفية " لا تأخذ أكثر مما تحتاج "، ومنها ان هارون الرشيد كان يسير، وبين يديه الامحال والخدم والعبيد، فصاح به صوفي، قائلا: " يا هارون اتعبت الناس والبهائم، وقال له صوفي آخر: ان كل واحد من الناس مسؤول عن نفسه، وأنت مسؤول عن جميع الناس.

ومنها ان المأمون اشرف يوما من قصره، فرأى فقيرا بيده فحمة يكتب بها على حائط القصر الذي يقيم به هذين البيتين:

يا قصر جمع فيك الشؤم واللؤم
* حتى يعشش في أركانك البوم
يوما يعشش فيك البوم من فرحي
* أكون أول من يرعاك مرعوم

---

(١) شخصيات صوفية لطه سرور ص ١١٩ طبعة ١٩٤٨.

فقال له المأمون: ما حملك على هذا؟! فقال: لقد حوى قصرك من خزائن الأموال والحلي والحلل ما لا يعد ولا يحصى، والناس تموت جوعا، حتى كأن الدنيا لك دون سواك، ثم انشد:

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ
* نصيب ولاحظ تمنى زوالها

إلى غير ذلك من مواقفهم التي لا يبلغها الاحصاء.

وكان الصوفية يسلكون في تقريع الحكام وتأنيبهم شتى الطرق والأساليب، قال ابن السماك للرشيد: لو حبست عنك شربة ماء أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم. قال: لو حبس عنك خروجها أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم. قال: ما خير ملك لا يساوي شربة ولا بولة؟!.

وحاول الساسة ان يشتروا من الصوفية دينهم وضمائرهم، وان يدفعوا ثمن السكوت عن ظلمهم ومساوئهم بالغا ما بلغ، بل حاول الكثير منهم ان يتخذوا من الزهاد والعباد أداة لبث الدعاية، ونشر ما يحبون ان يتصرفوا به من العدل والايمان فرفض المخلصون، واستجاب المحترفون قال زكي مبارك في كتاب " التصوف الاسلامي " ج ص ٣٣٨ طبعة ١٩٥٤: " والشعراني نفسه استخدمه حكام عصره في تجميل سمعتهم بين الناس، ودفعوا ثمن ذلك بالسكوت عن أوقاف زاويته، وكانت تحيط بها

شبهات " ومبارك نقل هذا عن صاحب الدرر المنظمة في الخطط التوفيقية جزء ١٤ صفحة ١٠٩.
وبالتالي، فان الحوادث والأرقام تدل بصراحة على أن التصوف في صدر الاسلام لم يكن مقصودا لذاته، وانما جاء نتيجة لامر غير مقصود، نتيجة للأوضاع الفاسدة التي كان عليها المجتمع، ولكن هذه النتيجة لم تحل المشكلة، ولم تصلح شيئا من الفساد، كما انها لم تستمر إلى النهاية خالصة لوجه الله، كما كانت في البداية.

التصوف ونظرية المعرفة
ما هي المعرفة؟ وما هي مصادرها ومنابعها؟ ما هو القياس الصحيح العام الواضح الذي نميز به صحيح الأشياء من باطلها؟ وبالتالي، هل من الممكن أن يكون حدس القلب سببا من أسباب المعرفة؟
المعرفة:
إذا كنت " واقعيا " ومن الذين يقولون ومؤمنون بان للعالم وجودا مستقلا عن الادراك فيمكنك أن ترسم المعرفة بأنها صورة الشئ عند العقل كما هو في الواقع، وترسم هذه الصورة في العقل بواسطة آلات البدن، كالسمع والبصر والذوق واللمس والشم، أو بواسطة الفكر والتأمل.
وان كنت " مثاليا " ومن الذين يرون أن العالم لا وجود له في الخارج، وانما الموجود هو ادراك الأشياء، لا الأشياء نفسها فالمعرفة على هذا هي نفس الادراك لا صورة الشئ الموجود، إذا لا حقيقة للوجود الخارجي أبدا على هذا الافتراض.

أسباب المعرفة وأقسامها:
تنقسم المعرفة باعتبار أسبابها إلى أربعة أقسام:
١ – المعرفة بالحس: كتصور الحرارة والنور والطعم والصوت، والرائحة.
٢ – المعرفة بالعقل: كمعرفة الحقائق الحسابية والهندسية.
٣ – المعرفة بالوحي: كمعرفة وجوب الصوم والصلاة، وما إلى ذلك مما يؤخذ من كتاب سماوي، أو حديث نبوي، ويسمى مصدر هذه المعرفة بدليل السمع والنقل تمييزا له عن دليل العقل.
٤ – المعرفة بالقلب: وهي ظاهرة فريدة وغريبة عن أذهاننا لأنها لا تنشأ من الحس والتجربة، ولا من العقل، وأقيسته المنطقية، ولا من الوحي والأحاديث النبوية، لا من كتاب ولا أستاذ، لا من شئ سوى الهام القلب وحدسه واشراقه، وتنبوئه الصادق. وهذه هي طريقة أهل التصوف، حيث قالوا: العلم علمان: علم الكسب، وعلم الوهب. والأول يأتي من الحس والتجربة والعقل، ويختص بالعلوم الدنيوية، كالعلوم الطبيعية والرياضية، والثاني يأتي من الالهام، والالقاء في القلب، ولا يحصل هذا الالقاء الا للصفوة الخلص، ويختص بالعلوم الدينية وما يتصل بها، كمعرفة الله وصفاته، وحقيقة النبوة والوحي والرسالة، والحياة الآخرة، وصفات الجنة والنار، واسرار العالم وخلقه من بدايته إلى نهايته، ومعرفة الخير والشر،

وحقيقة الانسان والغاية من وجوده، وهذه الحقائق على ما هي عليه في علم الله تعرف بالقلب لا بالعقل، لأمور:

١ - ان أقرب الحقائق إلى الانسان نفسه التي بين جنبيه، وهو عاجز عن ادراكها، فكيف يقدر على معرفة الحقائق البعيدة عنه، وعن الطبيعة بكاملها؟!

٢ - ان نظر العقل يتبع استعداد الناظر، ويختلف باختلاف ظروفه وملابساته، ومن هنا قيل: ان الانسان عين ما يأكل ويشرب ويلبس، وينظر ويلمس، وبديهة ان لكل انسان ضروفا تباين ظروف سواه، ومتى تناقضت الآراء وتضاربت استحال الاعتماد عليها جميعا، كما أنه لا يجوز الاخذ بأحدها دون الآخر، لأنه ترجيح بلا مرجح، ولأن احتمال البطلان عارض على الجميع.

٣ - ان الناظر كثيرا ما يعتقد بصحة شئ، ويبقى على ذلك أمدا مديدا، ثم يتبين له الفساد، فيتبدل رأيه واعتقاده، مع العلم بأن السبب الثاني الذي دعاه للعدول ليس بأقوى من الأول، ولا أقل من الشك، فالاثنان اذن لا يؤخذ بهما (١).

ومن هذه الأدلة، وما إليها يتبين معنا انه لا يمكن الاتكال على شئ من نظر العقل، فيتعين الرجوع إلى القلب.

---

(١) هذه الأدلة جاءت في كتاب " مصباح الانس " للقونوي تلميذ الشيخ ابن عربي.

الحس الصائب:
ولكن الحس الصائب لا يحصل للقلب الا بعد رحلة طويلة وخطيرة، وهي ان يجاهد الانسان نفسه، ويروضها على التوجه إلى الله وحده، والالتجاء اليه في جميع الأمور، والابتعاد بها عن النقائص والرذائل، حتى تحصل لها طهارة اللسان بالتعبير عن الصدق والعدل، وطهارة الفرج عما حرم الله، وطهارة اليد عن العدوان، وطهارة العين عن النظر بريبة وسوء نية، وطهارة السمع عن الكذب والغيبة، وطهارة العقل عن الجهل والتقليد، وطهارة القلب عن الحسد والحقد، وطهارة الخيال عن الأماني والأفكار السوداء، ومتى تم للانسان هذه الفضائل القى الله النور في قلبه، وأصبح صادقا في حدسه، كأنه الوحي لا يقبل الشك والريب.

نحن والتصوف:
لا أريد ان أفاضل بين القلب والعقل، كوسيلتين للمعرفة والكشف عن الحقيقة، فان هذه المفاضلة أشكل وأخطر القضايا الفلسفية على الاطلاق، وانما أريد التعبير عما شعرت به، وانا ابحث وانقب في كتب التصوف، وأتأمل وأفكر في كلمات المتصوفة، فلقد كنت قبلا أسخر من التصوف، وممن يراه شيئا مذكورا، وبعد ان تفهمته على حقيقة آمنت بأنه يستأهل العناية، وان اهتمام الأولين والآخرين به لم يكن عبثا، وان من يسيطر على نفسه، ويسير بها في سبيل النبل والرفعة، ويتقي الله حق

نقاته ويتخلق بأخلاقه الفاضلة لا بد ان يؤيده الله بروح منه، ويبلغ به إلى المعرفة بعظمة الله، وبالحكمة التي منحها الله للأنبياء، والأولياء، والتي يميز بها بين الخير والشر والحق والباطل، والقبح والجمال.

ان الفضائل متآخية متشابكة يدعو بعضها إلى بعض، وكل خلق كريم يطرد خلقا لئيما، تماما كالجسم القوي المنيع يقاوم الأسقام، ويزداد قوة ونشاطا، وقد جاء في القرآن الكريم: " والذين اهتدوا زدناهم هدى ".

اما الرذائل فهي كأمراض الجسم يؤدي بعضها إلى بعض، قال تعالى: " واما الذين في قلوبهم مرض رجسا إلى رجسهم ".

ومن هنا تسود الفضيلة حيث يوجد النظام والايمان، وتسود الرذيلة في بيئة الفوضى والالحاد.

إلى الذين يزكون أنفسهم
قال الإمام علي (ع): " وأيم الله يمينا، استثنى بمشيئة الله، لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوما، وتقنع بالملح مأدوما ".
ان رضى النفس بقرص الشعير والملح مع قدرتها على لباب القمح، والعسل المصفى فضيلة في نفسه، وبالقياس إلى غير الامام، اما بالقياس إلى من عف وكف عن ابن العاص الذي قاد الجيوش إلى حربه والقضاء عليه، وصفح عن مروان بن الحكم، وابن أرطأة، اما بالقياس إلى من سقى أعداءه الماء بعد ان منعوه منه، وحاولوا قتله عطشاء، وأوصى بقاتله خيرا، وقال لأبنائه: " وان تعفوا أقرب للتقوى "، اما بالقياس إلى علي بن طالب فان الرضى بالقرص لا يعد شيئا مذكورا.
والحقيقة اني لم افهم معنى لقول الامام: " لأروضن نفسي " وقوله: " وانما هي نفسي أروضها بالتقوى " الا على سبيل التنازل والتواضع، وهل تميل نفسه إلى غير التقوى حتى تحتاج الترويض والتمرين؟! ان نفسه هي التقوى وميزان الحق، والصراط

القويم إلى الله وكتابه وشريعته، انها نفس محمد (ص) بالذات الا انه لا نبي بعد خاتم الأنبياء وسيدهم.

ان قلت: ان هذا لا يتفق مع قول الإمام: " وخدعتني الدنيا بغرورها، ونفسي بخيانتها، وقول: اللهم لا تعاجلني بالعقوبة على ما عملته في خلواتي من سوء فعلي وإساءتي، ودوام تفريطي وجهالتي، وكثرة شهواتي وغفلتي. وقوله أيضا: الهي ومولاي أجريت علي حكما اتبعت فيه هوى نفسي، ولم احترس فيه من تزيين عدوي، كما يتنافى أيضا مع قول الإمام زين العابدين: مالي كلما قلت: قد صلحت سريرتي وقرب من مجالس التوابين مجلسي عرضت لي بلية أزالت قدمي، وحالت بيني وبين خدمتك ". فان هذا اعترف صريح بان الامام مغلوب لا غالب للدنيا وكثرة الشهوات!.

الجواب:

أولا - ان هذا اعتراف بالعبودية لا بالذنب، وتعظيم وانكسار له، والتجاء اليه، وتوكل عليه، وهو ضرب من عبادة الأصغياء، بل من أعلا مراتب العبادة وأنواعها.

ثانيا - ان السر لعظمة العظماء يكمن في تواضعهم واتهامهم لأنفسهم، فهم في خوف دائم من التقصير وعدم القيام بما يجب، ومهما قدموا للانسانية من جليل الاعمال، وقاموا لله بالعبادات والطاعات، فلا يرونها شيئا في جنب الله، ويطلبون من أنفسهم المزيد من الجد والاجتهاد، انهم يعرفون جلال الله وقدرته، وعزته وعظمته، فلا يعظم شئ سواه في أعينهم، وان عظم،

قال الامام: " ان من حق من عظم جلال الله في نفسه، وجل موضعه من قلبه ان يصغر عنده لعظم ذلك كل ما سواه " هذا هو شأن العارفين المخلصين أصحاب الهمم والطموح، وشأن الأحرار الذين يملكون أنفسهم، ولا يملكهم شئ، ويتطلعون دائما إلى رحمة الله ومرضاته.

ثالثا – ان أهل الصدق والايمان يسلكون في جميع أقوالهم وافعالهم طريق الحذر والاحتياط، فإذا تحدثوا عن أنفسهم انتقدوها، واتهموها بالتواني والكس، بل كثيرا ما يبلغ بهم الامر إلى توبيخها وتأنيبها، ولا شئ أثقل عليهم من المدح والاطراء، وقد جاء في الحديث: " احثوا في وجوه المداحين التراب " ومدح أمير المؤمنين قوم في وجهه، فقال: " اللهم انك اعلم بي من نفسي، وانا اعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلنا خيرا ممن يظنون، واغفر لنا ما لا يعلمون ".

اما الذين يزكون أنفسهم، ويبرأونها من كل عيب فإنهم لا يشعرون بواقعهم، ولا يعرفون شيئا من داخلهم، وهم الذين عناهم الله سبحانه بقوله: قل هل أنبئكم بالأخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا ".

قال أحد علماء النفس في تعريف الانسان: " انه الحيوان الوحيد الذي يستطيع ان يكذب ". والأولى ان يقال في تعريفه: انه الحيوان الوحيد الذي تكذب عليه نفسه فيصدقها، تقول له: انك صادق امين، وشجاع كريم، وعالم عظيم، فيقول: اجل انا كذلك وفوق ذلك، وصدق من قال: " ان في أعماق كل

منا يكمن صحفي خداع يلفق الانباء، ويموه الحقائق، ويختلق الشائعات، ويمزج الحق بالباطل ".
وبهذا يفترق الصوفي الحق عن غيره، حيث لا يوجد في أعماقه صحفي خداع يلفق الانباء، ويموه الحقائق، قال الرشيد لأحد الصوفية: ما أحسن ما بلغني عنك!. فقال له: والله اني لخائف على نفسي من قلة الخوف عليها. وقال رجل للإمام الصادق: أوصني يا بن رسول الله. فقال له: من شتمك فقل له: ان كنت صادقا غفر الله لي، وان كنت كاذبا غفر الله لك، ومن قال لك: ان قلت كلمة سمعت عشرا، فقل له: ان قلت عشرا لن تسمع واحدة.

التصوف وأهل البيت
اهتم أهل البيت (ع) اهتماما بالغا بالأدعية، والأوراد، ووضعوا لها صيغا خاصة، حفظها عنهم شيعتهم وأتباعهم، وألفوا فيها الكتب والمجلدات. قال زكي مبارك في المجلد الثاني من كتاب " التصوف الاسلامي ": " كانت أدعية زين العابدين مما اهتم به الشيعة اهتماما شديدا، فصححوا رواياتها، ونقدوها، وكتبوها بالذهب في كثير من البلدان.. والصوفية يعتقدون ان زين العابدين كان من أهل الاسرار ".
وتكلمت عن هذه الأدعية والأوراد ف كتبي " مع الشيعة " و " أهل البيت " و " الاسلام مع الحياة " و " الآخرة والعقل " و " المجالس الحسينية ". والآن اقتطف جملا من دعاء كان يدعو به الامام الشهيد الحسين بن علي في يوم عرفة:
القضاء والقدر:
" منه ": " الحمد لله الذي ليس لقضائه دافع، ولا لعطائه مانع، ولا لصنعه صانع ".

ينسب القضاء إلى الله سبحانه، والى غيره، ونسبته اليه عز وجل تأتي على معنيين: الأول على معنى الخلق والتكوين، كقوله تعالى: " فقضاهن سبع سماوات " اي أوجدهن وكونهن.
الثاني على معنى الامر والحكم التشريعي، كقوله سبحانه في الآية ١٧ من الاسراء: " وقضى ربك أن لا تعبدوا الا إياه وبالوالدين احسانا " أي أمر بذلك، وقال عز من قائل: " ان الحكم الا لله امر أن لا تعبدوا الا إياه ذلك القيم – ٤٠ يوسف ".
وإذا نسب القضاء إلى الانسان يكون على معنى الحكم، كقوله في الآية ٦٥ من النساء: " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما " أي مما حكمت وأمرت.
و " منه ": " اللهم اجعلني أخشاك كأني أراك، واسعدني بتقواك، ولا تشقني بمعصيتك.. وبارك لي في قدرك حتى لا أتعجل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت ".
كنت، وما زلت أتساءل: هل الذين يعصون الله، ويتجاوزون حدوده يؤمنون بالله واليوم الآخر، أو انهم يتظاهرون بالايمان رياء ونفاقا؟.. وبكلمة هل يجتمع الايمان مع العصيان؟
تساءلت عن ذلك، ولم أجد الجواب المقنع لا عند نفسي ولا فيما سمعت وقرأت، وربما يجاب عن هذا التساؤل: أولا بأن العاصين يؤمنون بالله، ولكنهم يرجون عفوه

ومغفرته، ويعتمدون على قوله سبحانه: " انه الله لا يغفر ان يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ".

وبديهة أن الغفران لا يأتي جزافا، بل لا بد له من سبب تقتضيه الحكمة الإلهية، والا لم يكن للتكليف وتشريع القوانين من فائدة، وكان الطائع والعاصي، والمحسن والمسئ، سواء في نفي المسؤولية وعدم العقاب، وكلنا يعلم أن سبب الغفران هو التوبة والإنابة، والرجوع إلى طاعة الله مع الندم والعزم على عدم العودة إلى العصيان، أما من أصر على الذنوب، وبخاصة الكبائر منها فأمره صعب عسير.

ثانيا انهم مؤمنون، ولكن ايمانا ضعيفا لا يقوى على مقاومة العاطفة والمغريات، فإذا اصطدم معها كان مغلوبا لا غالبا، فكما ان ضعيف الجسم يتغلب عليه من هو أشد وأقوى كذلك ضعيف الايمان تصرعه الأهواء والشهوات.

ومهما يكن، فان الايمان لا يتجزأ، فإذا صلى الانسان وصام، وهلل وكبر بدافع الدين، فينبغي له أيضا ان يمتنع عن الكذب والرياء والدس والخيانة، وما إلى ذلك من المحرمات والموبقات، يمتنع عنها بهذا الدافع، والا كان ايمانه تصورا وتخيلا، أشبه بأريحية البخيل واهتزازه حين يستمع إلى حديث الشجاعة. ان المؤمن حقا هو الذي يعمل، وكأنه في يوم الحساب ينظر إلى الخلائق، وهم امام الله سبحانه يجازي كلا بأعماله، تماما كما قال الحسين: " اللهم اجعلني أخشاك كأني أراك " وكما قال أبوه أمير المؤمنين: " اعبد الله كأنك تراه،

فإن لم تكن تراه فإنه يراك ".
و " منه " اللهم اجعل غناي في نفسي، واليقين في قلبي، والاخلاص في عملي، والنور في بصري، والبصيرة في ديني ".
ان كل واحد من الناس كائنا من كان يحتاج إلى الناس ومحال ان يتم المجتمع ويكتمل بدون التعاون، فأنت متمم ما في غيرك من نقص، وغيرك متمم ما في غيرك من نقص، وغيرك متمم ما فيك من نقص، والكل يسيرون في طريق الاكتمال الاجتماعي. وإذا لم يكن الانسان كائنا مستقلا عن غيره، فكيف سأل الحسين ربه سبحانه أن يجعله غنيا في نفسه؟!
الجواب:
ان التعاون على الخير فضيلة من غير شك، لأنه ضرورة اجتماعية، اما العيش على حساب الآخرين، وبيع الدين والكرامة بالدنيا وحطامها فرذيلة ممقوتة يتعوذ منها كل مخلص، كما يتعوذ من الشيطان، والحسين (ع) سأل ربه الغنى عن كل موقف مشين يمس من دينه وكرامته، سأله أن يكون غنيا في عمله وجده واجتهاده، واثقا بالله دون غيره، مفتقرا إليه دون سواه.
قال الإمام الصادق (ع): " اتقوا الله وصونوا أنفسكم بالورع.. والاستغناء بالله عن طلب الحوائج إلى صاحب سلطان واعلموا ان من خضع لصاحب سلطان، أو لمن يخالفه على دينه طلبا لما في يده من دنياه اخمله الله ومقته عليه، ووكله اليه، فان هو غلب على شئ من دنياه فصار اليه منه شئ نزع الله

البركة منه، ولم يؤجره على شئ ينفقه في حج، ولا عتق، ولا بر. ونقل عن الشيخ البهائي انه عقب على هذا الحديث بقوله: " صدق الامام، فقد جربنا ذلك، وجربه المجربون قبلنا، واتفقت الكلمة منا ومنهم على عدم البركة في تلك الأموال، وسرعة نفادها واضمحلالها، وهو أمر ظاهر محسوس يعرفه كل من حصل على شئ من تلك الأموال الملعونة ".

وجاء في الحديث الشريف عن الرسول الأعظم " اللهم ارزق محمدا وآل محمد، ومن أحب محمد أو آل محمد الكفاف والعفاف ".

وقال الحسين: " اللهم حاجتي التي ان أعطيتنيها لم يضرني ما منعتني، وان منعتنيها لم ينفعني ما أعطيتني، أسألك فكاك رقبتي من النار ".

هذه هي أمنية الأبرار " النجاة من النار " ولا شئ سواها، فان حصلوا عليها، ثم فقدوا كل شئ حتى الماء والهواء، وحتى لم قطعوا اربا اربا فهم الرابحون المنتصرون، وان فقدوها، ثم ملكوا الكون بما فيه من أرضه إلى سمائه فهم الخاسرون المغبونون، وهذا معنى قول الحسين (ع) في هذا الدعاء الذي نحن بصدده مخاطبا ربه: " ماذا وجد من فقدك؟! وما الذي فقد من وجدك؟! ". ولم تكن أقوال الحسين الا نبضا من أعماق قلبه يتمرس بها ويحياها، ولو جرت عليه الكوارث والخطوب، فلقد قال، والسيوف تنهال عليه من كل جانب: " هون علي ما نزل بي انه بعين الله ". فالحسين يسير بالألم

والمصاب ما دام لله فيه رضى، فالحكمة والصلاح والخير هو ما يختاره الله، وإن كان فيه ذهاب النفس والأهل والمال، فان حصل شئ من هذا في سبيل الله، أو حصلت مجتمعة لم تضطرب النفس، ويتزعزع الايمان، لأنها هي المطلب والهدف.

هذا مبلغ أهل البيت من الدين واليقين بالله، وهذه منزلتهم من العلم به سبحانه، والتوجه اليه بالفعل قبل القول، وهذا هو التجرد عن الدنيا وغاياتها، والغناء في جنب الله عز وجل، والانجذاب اليه، وهذا هو التجلي والاشراق والنور والكشف، وبلوغ الكمال، وماذا بقي لأهل التصوف بعد قول الحسين: " ماذا وجد من فقدك؟! وما الذي فقد من وجدك! ".

وقال: " الهي ان اختلاف تدبيرك، وسرعة طواء مقاديرك منعا عبادك العارفين بك من السكون إلى عطاء، واليأس منك في بلاء ".

ليس للعارفين وأهل اليقين أطوار وحالات، ولا شخصيات تتحول وتتبدل تبعا للظروف والملابسات، فايمانهم بالله أقوى من أن تزعزه الحوادث، وثقتهم به في السراء تماما كثقتهم في الضراء، لا يبطرون عند الصحة والغنى، ولا يبأسون عند المرض والفقر، لأن الحالين في طريق الزوال. قيل لبعض الحكماء: ما لنا لا نراك فرحا ولا حزينا؟. فقال: لان الغائب لا يتلاقى بالعبرة، والآتي لا يستدام بالحيرة. وقال عز من قائل: " وان يمسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء – ١٧ الانعام ". وما

دام الامر إلى مقادير الله سبحانه ترفع الوضيع، وتغني الفقير، وتفقر الغني، وتمرض السليم، وتشفي السقيم فعلام السكون إلى العطاء، واليأس في البلاء؟

وقال: " الهي أمرت بالرجوع إلى الآثار، فارجعني إليك بكسوة الأنوار، وهداية الاستبصار، حتى ارجع إليك منها، مصون السر عن النظر إليها، ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها، انك على كل شئ قدير ".

يقول: الهي انك خلقت الكائنات، وهي تدل عليك من كبيرها إلى صغيرها، وأمرتنا بالنظر فيما أودعته فيها من الحكمة وبدائع الصنع والتكوين، لتحصل لنا المعرفة من طريقها بقدرتك وعظمتك، ولكنا نسألك أن تهبنا نورا واستبصارا من عندك، لنؤمن بك مباشرة دون أن نرجع إلى الآثار من خلق السماوات والأرض، حتى إذا رأيناها لم نزدد معرفة ويقينا بك، بل يكون رجوعنا إليها كخروجنا منها، لأنها لم تفتح لنا أبوابا جديدة للايمان بك بعد أن زودت قلوبنا بالنور والسكينة.

وهذا هو سبيل الصوفية الذي ينتهي بالانسان إلى الايمان بالله عن طريق القلب لا عن طريق العقل وأقيسته المنطقية.

الاتحاد والحلول
وقع بعض المستشرقين في أخطاء جوهرية، وهم يكتبون عن التصوف في الاسلام، وتبعهم من الكتاب من لا منطق له الا منطق الأجانب الأباعد.
بين الزهد والتصوف:
من تلك الأخطاء الخليط بين الزهد والتصوف، واعتبارهما شيئا واحدا، مع أن التصوف قد اخذ في مفهومه مجاهدة النفس وترويضها، اما الزهد فهو مجرد الاعراض عن الدنيا ومتاعها بأي نحو من الانحاء، اجل، ان الزهد ثمرة من ثمرات التصوف، وليس التصوف بالذات.
الاتحاد والحلول:
ومنها الخلط وعدم التمييز بين الاتحاد ووحدة الوجود مع أن مفاهيمها متغايرة متباينة، فالاتحاد هو ان تمحى من الانسان كل صفة من صفات الجسم، ويزول عنه كل ما هو غير روحاني، ومتى تم ذلك يتحد الانسان بالله، ويصير علمه علم الله، وقدرته

قدرة الله، وعظمته عظمة الله، ونسب هذا الاتحاد إلى أبي يزيد البسطامي المتوفي سنة ٢٦١ ه.

اما الحلول فهو ان الله قد حل في الانسان وفي غيره من اجزاء هذا العالم، ولكن هذا العالم المشاهد عدم زائل، وشر محض، فإذا تجرد الانسان عن كل اثر من آثاره، وصفة من صفاته يذهب المحل، وهو الجسم، ويبقى الحال، وهو الله، وعليه يكون الفرق بين الاتحاد والحلول اعتباريا لا جوهريا، إذ على كلا التقديرين يتصف الانسان بالصفات الإلهية عندما يتجرد من المادة، سوى ان هذه الصفات لا توجد في الانسان الا بعد التجرد بناء على الاتحاد، وهي موجودة فيه قبل التجرد بناء على الحلول، ولكنها محجوبة بصفات الجسم، ومتى زالت هذه الصفات المادية ارتفع الحاجب، وتجلى الله في الانسان بكامل صفاته. ونسب القول بالحلول إلى الحلاج الذي قتل سنة ٣٠٩ ه.

وحدة الوجود:

اما وحدة الوجود فقد فسرت بتفاسير شتى، ويمكن ارجاعها إلى معنى واحد نستطيع فهمه وهضمه، وهو نفي التعدد في الوجود، وعدم الفرق بين حقيقة الوجودات والموجودات، وانه لا يوجد شيئان أحدهما واجب كامل، وعلة موجودة للغير، وآخر ممكن ناقص يستمد وجوده من الغير، وانما الوجود واحد، وهو واجب الوجود، والأبدي الأزلي، والظاهر والباطن، هو كل شئ ولا شئ سواه، وعلى هذا تكون

وحدة الوجود في قبالة القول بتعدد الموجود، وتقسيمه إلى الواجب بذاته، والممكن بذاته، ومهما يكن، فان كل من الاتحاد أو الحلول يستدعي الاثنينية والتعدد، ولا تعدد في وحدة الوجود. ونسب القول بوحدة الوجود إلى ابن عربي المتوفي سنة ٦٣٨ ه (١).

ويتفق القول بوحدة الوجود مع المذهب المادي القائل بان مرجع كل شئ إلى المادة. وانها توصف بجميع صفات الله من الأبدية والأزلية والقدرة، وان كل ما توحيه قوانينها المعبر عنها بالقوانين الآلية الميكانيكية لا بد ان يتحقق ويكون، لأنه لا قوة قاهرة غالبة وراءها.

صدر المتألهين:

اما الفيلسوف الشهير محمد بن إبراهيم المعروف بصدر المتألهين فقد نفي عن أهل العرفان والتصوف الحق القول بالاتحاد والحلول ووحدة الوجود، وأطال الكلام في تبرئتهم من هذه التهمة في الجزء الثاني من السفر الأول من كتاب " الاسفار "، وقال فيما قال: حاشاهم من ذلك، ومن نسب إليهم شيئا منه فهو قاصر النظر والفهم.

وتتلخص أقواله بان أهل العرفان حين يقولون: ان الوجود

---

(١) برأه من هذه النسبة صدر المتألهين، وعبر عنه في كتاب الاسفار بالشيخ العارف الموحد الرباني الصمداني فهو في نظره موحد لله سبحانه لا للوجود بما هو وجود.

واحد، فلا يريدون وحدة الوجود، وما إليها مما يستدعي الكفر والجحود، كيف؟! وهم يقسمون الوجود إلى واجب وممكن، ولكن لما رأوا ان أصل الوجودات الممكنة واحد، وهو واجب الوجود، وان عللها مهما تعددت، وتسلسلت فلا بد ان ترجع في النهاية اليه سبحانه، وانها جميعا فانية ولا يبقى الا وجهه الكريم قالوا: ان الوجود حقيقة انما هو للواحد الدائم، وأرادوا بذلك ان جميع الممكنات تتفرع عنه وحده، ومن المفيد ان ننقل شطرا من أقواله في هذا الصدد، قال في صفحة ٣٠٠:

" المعلول لا حقيقة له ولا معنى غير كونه اثرا وتابعا من دون ذات تكون معروضة لهذا المعنى، كما أن العلة المفيضة على الاطلاق انما كونها أصلا ومبدأ ومتبوعا هو عين ذاته، فإذا ثبت تناهي سلسلة الموجودات من العلل والمعلولات إلى ذات بسيطة الحقيقة النورية الوجودية متقدما عن شوب كثرة ونقصان، وامكان وقصور وخفاء برئ الذات عن تعلق بأمر زائد حال أو محل، خارج أو داخل، وثبت انه بذاته فياض، وبحقيقته ساطع، وبهويته منور للسموات والأرض، وبوجوده منشأ لعالم الخلق والامر تبين وتحقق ان لجميع الموجودات أصلا واحدا هو الحقيقة والباقي شؤونه، وهو الذات، وغيره وأسماؤه ونعوته وهو الأصل، وما سواه أطواره، وشئونه، وهو الموجود وما وراء جهاته وحيثاته، ولا يتوهمن أحد من هذه العبارات أن نسبة الممكنات إلى ذات القيوم تعالى نسبة الحلول،

هيهات ان الحالية والمحلية يقتضيان الاثنينية في الوجود بين الحال والمحل، وها هنا عند طلوع شمس التحقيق ظهر ان لا ثاني للوجود الواحد الاحد الحق، واضمحلت الكثرة الوهمية ".

وقال في مقام آخر من كتاب " الاسفار ": " ان الصديقين من الصوفية يفنون عن رؤية أنفسهم، ولا يرون الا الله.. انهم يصلون إلى مقام الوحدة من غير شبهة الاتحاد " اي انهم موحدون، وليسوا من القائلين بوحدة الوجود.

وما ذهب اليه صاحب الاسفار من نفي الحلول والاتحاد عن عن كثير من الصوفية يتفق مع أصول الدين ومبدأ الشريعة القائل: " الحدود تدرأ بالشبهات " فمهما أمكن تأويل كلامهم وحمله على ما لا يتنافى مع الدين فهو المتبع.

وذلك مثل قول الشبلي: " ما رأيت شيئا الا الله " حين سمع من قال: " ما رأيت شيئا الا رأيت الله معه "، وقول الجنيد: " والآن ليس مع الله شئ " حين سمع الحديث الشريف: " كان الله، ولم يكن معه شئ ".

وقال صوفي: " حججت للمرة الأولى فرأيت الكعبة، ولم ار رب الكعبة، ولما حججت الثانية رأيت الكعبة ورب الكعبة، ولما حججت الثالثة رأيت رب الكعبة، ولم ار الكعبة ".

والأولى حجة الغافل الذاهل، والثانية حجة المتأمل المفكر، والثالثة حجة الفاني في الوجود.

الانسان

ما أعجب هذا الانسان الذي يضع نفسه بنفسه موضوع البحث والتحقيق!.. فيتكلم عن طبيعته وحقيقته، وعن أصله ومآله، واخلاقه وافعاله، ونقصه وكماله، ويصدر احكامه على ذاته بذاته، كما يصدرها على أي كائن آخر..

والآن تعال معي أيها الانسان، لنستمع إلى ما قيل عني وعنك.

أصل الانسان:

قالوا: ان هذا السيل المتدفق من افراد الانسان لم يتولد في الأصل من كائن يماثله، بل تحول طبيعة إلى طبيعة، ومن شكل إلى شكل، حتى أصبح كما نراه الآن (١).

---

(١) نقل المجلسي في الجزء الرابع من بحار الأنوار المعروف بالسماء والعالم ان المسلمين والنصارى واليهود اتفقوا على أن ابا البشر هو آدم، وقال الفلاسفة: لا أول للأنواع المتوالدة. وقال غيرهم: ان الأجسام كانت على طبيعة واحدة ثم تعددت العناصر بواسطة الحرارة التي أحدثتها الحركة، وبعد ان تعددت العناصر واختلطت وتحركت وحصلت العفونة، ومن العفونة تولد الانسان كما يتولد الدود في الفاكهة واللحم!... اذن هذا الزعم قديم، وليس حادثا جديدا، كما يظن.. لقد افرط هؤلاء دون ان يعتمدوا على دليل. وغالى المؤمنون بآدم، حيث نسبوا اليه كتابين أحدهما اسمه " سر الخفايا " والثاني اسمه " الملكوت "، وموضوعهما في علم الحروف!..

وليس لهذا القول مدركا الا الحدس والظن، فان مسكلة أصل الانسان ليست مجالا للعقل والفكر، ولا يرجع فيها إلى العلم والتجربة، انها مشكلة غيبية لا يحلها الا الدين، ولا تعرف الا بالوحي. وإذا حل العلم مشكلة المواصلات والغذاء والكساء، فليس معنى هذا انه على كل شئ قدير، فهل يستطيع العلم ان يخبرنا عن كل ما حدث في الكون منذ وجوده، حتى اليوم بحيث لا يشذ عنه كبيرة ولا صغيرة في الأرض والسماء؟!.

ان أصل الانسان محال ان يعرف بالعلم والعقل، فطريق معرفته منحصر بالوحي لا بد أن يقع في الأوهام والأخطاء، ويخبط خبط عشواء، كما حدث لكل من تكلم عن أصل الانسان على غير أساس الدين والوحي. وقد جاء في القرآن الكريم الآية ٥٩ من آل عمران: " ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ". والآية ٣٧ من سورة الكهف: " أكفرت بالذي خلقك من تراب " والآية ٥ من سورة الحج: " فانا خلقناكم من تراب " والآية ٢٠ من سورة الروم: " ومن آياته ان خلقكم من تراب " والآية ١٣ من سورة الحجرات: " يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى " إلى

غير ذلك من الآيات، وجاء في الحديث الشريف: " كلكم من آدم، وآدم من تراب ".

تعريف الانسان:

لقد عرف الانسان نفسه بتعاريف شتى لا يشملها قاسم مشترك، منها انه حيوان ناطق، أو ضاحك، أو الهي، أو مدني بالطبع، أو فيه انطوى العالم الأكبر، أو أفضل من الملائكة، أو أخبث من الشيطان، وقال سارتر زعيم الوجوديين: ان وجود الانسان عبث زائد عن الحاجة، وقال آخر: انه الكائن الذي يستطيع ان يكذب. وقالت الملائكة: انه يفسد في الأرض، ويسفك الدماء، كما صرحت الآية ٣٩ من سورة البقرة.

وقال بعض الصوفية: ان الانسان خليفة الله في ارضه صورة ومعنى، اما صورة فلان وجود الانسان يدل على وجود الباري، كالبناء يدل على وجود الباني، واما معنى فلان وحدانية الانسان تختلف عن وحدانية الله، وذاته عن ذاته، وارادته عن ارادته، وسمعه عن سمعه، وبصره عن بصره، وكلامه عن كلامه، وعلمه عن علمه، وليس لاحد من المخلوقات ان يخلف عن الله في شئ غير الانسان.

ثم قال هذا الصوفي: اما قول الملائكة بأن الانسان يفسد في الأرض فلانهم نظروا اليه من جانب الشر الذي فيه، ولم

ينظروا إلى جانب الخير الذي أشار الله اليه بقوله: " اني اعلم ما لا تعلمون " (١). وجاء في المجلد الرابع عشر من كتاب بحار الأنوار للمجلسي ان المخلوقات تنقسم إلى أربعة أقسام:

(١) فيه القوة العقلية دون الشهوانية، وهم الملائكة.

(٢) فيه القوة الشهوانية دون العقلية، وهو الحيوان.

(٣) ليس فيه ثمة شئ منهما وهو الجماد والنبات.

(٤) فيه الأمران، وهو الانسان.

وعلى هذا فالملائكة حين وصفوا الانسان بالفساد نظروا إلى القوة الحيوانية، واهملوا القوة العقلية الانسانية.

ومن المفيد ان نذكر ما جاء في كتاب " مصباح الانس " لابن حمزة في شرح " مفتاح الغيب " للقونوي، قال في ص ٣١٥:

ان في الانسان خاصية المعادن، وهي الكون والفساد، وخاصية النبات، وهي النمو والغذاء، وخاصية الحيوان، وهي الحس والحركة، وخاصية الانسان، وهي الفكر والادراك، وخاصية الملائكة، وهي الطاعة والحياة.

فالانسان يتملق كالكلب والهر، ويحتال كالعنكبوت، ويتسلح كالقنفذ، ويهرب كالطير، ويتحصن كالحشرات،

---

(١) روح البيان للشيخ إسماعيل حقي ج ١ ص ٩٦.

ويعدو كالغزال، ويبطئ كالدب، ويسرق كالفأر (١) ويفتخر كالطاووس، ويحقد كالجمل، ويتحمل كالبقر، ويشمس كالبغل، ويغرد كالطير، ويحرص كالخنزير، ويصبر كالحمار، وينفع كالنحل، ويضر كالعقرب، وهو شجاع كالأسد، وجبان كالأرنب، وأنيس كالحمام، وخبيث كالثعلب، وسليم كالحمل، وابكم كالحوت، وشؤم كالبوم.

ومرة ثانية نقول: ان معرفة أصل الانسان لا ترتبط بالحس ومشاهداته، ولا بالعلم وتجربته، ولا بالعقل ومناقشته، ولا بفطرة الانسان وبديهته، وانما ترتبط بالدين والوحي لا غير، اما معرفة حقيقة الانسان كما هي، ومن جميع جهاتها فمحال، وانما نعرف بعض صفاته بالقياس إلى ما يصدر عنه من افعال وآثار.

أما الأقوال المتضاربة في تعريف الانسان فان دلت على شئ فإنما تدل على أن في طبيعته اسرار المنجيات والمهلكات بكاملها، وان الإحاطة بها فوق المستطاع، وعلى هذا يسوغ لنا أن نقول في تعريف الانسان: انه الذي يحاول أن يعرف نفسه على حقيقتها، ولكن على غير جدوى.

وقال الامام على: ان الانسان في بعض حالاته يشارك

---

(١) نقل ان نفس الحلاج كانت تعدو خلفه على صورة الفأر تارة، وعلى صورة الثعلب أخرى، وعلى صورة الكلب حينا، وان محمد بن عليان الصوفي خرجث نفسه من حلقه على هيئة ثعلب صغير.

السبع الشداد، اي الكون بكامله، فكما ان الحياة تتوقف على هذا الكون كذلك تتوقف على الانسان نفسه.
وقال أبو يزيد البسطامي: طلبت ذاتي في الكونين فما وجدتها، أي أن ذاته فوق عالم الطبيعة، وعالم المثال (١).

---

(١) الاسفار للملا صدرا، الجزء الأول من السفر الرابع ص ٣١٠.

الشيطان وقلب الانسان
مهما اختلف الصوفية فيما بينهم فإنهم متفقون كلمة واحدة على أن التصوف يبتدئ من التغلب على ميول النفس وأهوائها.
وليس هذا التغلب بالامر اليسير، فقد استسلم وخضع للأهواء في ذلة وصغار الألوف من العلماء والفلاسفة ورجال الدين، وقضوا حياتهم، وليس لهم مع امر الهوى امر، ولا مع حوله وقوته حول ولا قوة، ولكن إذا نشبت الشهوة أظفارها بالملايين، فليس معنى ذلك انها هي التي تحدد مصير الناس بأجمعهم، وان الانسان لا بد ان يقع أسيرا لها كائنا من كان، والا لم يكن للحرية والاختيار مكان، ولا للخير والشر معنى، ولا للقوانين والشرائع مبرر، حيث لا تبعة ولا مسؤولية.
ان الانسان، اي انسان، مسؤول عن عمله مهما تكن الظروف والملابسات، ما دام قادرا على أن يقف من البواعث والمغريات موقفا سلبيا، وماذا لدى المغريات غير الدعوة والتحسين؟! وهل تملك المومس الا التبرج؟! وليس من شك

في أن الموقف معها دقيق وحرج، ولكنه المحك لقوة الإرادة، وتمييز الرجال من أشباه الرجال.
وفي هذا الموقف الحاد العسير يأتي دور المتصوف، وجهاده مع النفس الامارة وميولها، وكما أن البطل هو الذي يصرع الخصم عند النزال كذلك الصوفي هو الذي يتغلب على ميول النفس ونزعاتها، ولا يستجيب لأهوائها وشهواتها، بل تكون أسيرة له يأمرها فتطيع، ولا يكون أسيرا لها تأمره فيطيع، فهذا التصوف لا يعني شيئا غير الصبر وقوة الإرادة والاجتهاد في مقاومة النفس إذا أرادت الانحراف والغواية، قال أحد المؤلفين:
" ان الشيطان يقرع على باب قلبك، ولكن ثق انه لم يقو من تلقاء نفسه على فتح الباب، لأنه رجل مهذب لا يقترف جريمة هتك حرمة مسكنك، بل يكتفي بطلب الاذن بالدخول، فلا تأذن له، وإياك ان توارب الباب، حتى ولا لترى من الطارق؟ ان من يفتح الباب فقد هلك.. ان دقيقة واحدة مع الشيطان كافية لأن توردك مورد التهلكة ".
وهذا صحيح نطق به القرآن الكريم حكاية عن الشيطان.
الآية ٢٢ من سورة إبراهيم: " وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم الا ان دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما انا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي اني كفرت بما أشركتموني من قبل ان الظالمين لهم عذاب اليم " فليس لإبليس أو الشهوات أو

الإرادة الشريرة أو المغريات الخارجية مهما شئت فعبر، ليس لها الا الدعوة، وما عليك الا الرفض إذا أردت أن تكون انسانا كريما، وهذا ما اراده الإمام علي (ع) من قوله: " أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد ".

دعانا الامام ان نصبر، ونعف ونكف إذا اعترضت سبيلنا المغريات، دعانا ان نقاوم ونجاهد ولا نستسلم للخطيئة، لأن من استسلم لها فقد تنازل عن شخصيته، ومحا نفسه من الوجود، وتركها للأهواء تفعل به ما تشاء، لا إرادة له ولا ادراك، ولا شئ ابدا، فهو إذ ينكر وجود الله والفضائل، ويحلل ويحرم فإنما ينطق بلسان الدنيا والشيطان، لا بلسان العقل والايمان، قال الامام مخاطبا الدينا، " فوالله لا أذل لك فتستدليني، ولا أسلس لك فتقوديني ".

وقال حفيده الإمام جعفر الصادق:

" الدنيا بمنزلة صورة، رأسها الكبر، وعينها الحرص، واذنها الطمع، ولسانها الرياء، ويدها الشهوة، ورجلها العجب، وقلبها الغفلة، وكونها الفناء، وحاصلها الزوال، فمن أحبها أورثته الكبر، ومن استحسنها أورثته الحرص، ومن طلبها أوردته إلى الطمع، ومن مدحها أكسبته الرياء، ومن أرادها مكنته من العجب، ومن اطمأن إليها أركبته الغفلة، ومن اعجبه متاعها فتنته فيما لا يبقى، ومن جمعها وبخل بها ردته إلى مستقرها، وهو النار ".

فالكبر والحرص والطمع والرياء والشهوة والعجب والغفلة،

كل هذه وما إليها من المساوي تأتي كنتيجة طبيعية لحب الدنيا والميل مع الهوى، وكل واحدة منها تدع الانسان في ظلمات تعميه عن رؤية الله ومعرفة الحقيقة، فكيف إذا تعاونت عليه مجتمعة؟! اما إذا انصرف عن الموبقات، وروض نفسه رياضة تجعل هواه ورضاه في طاعه الله وحده، حتى ولو كان فيها البلاء والضراء، فإنه، والحال هذه، يسير تلقائيا مع فطرة الله التي فطر الناس عليها، وينزع بطبعه إلى الايمان بالواحد الاحد، ولا يحتاج إلى أقيسة الفلاسفة واستدلالاتهم المنطقية، ونقاشهم وحوارهم، فهذا الايمان يستند إلى القلب وحده، على شريطة ان يكون طاهرا نقيا من كل شائبة.

وعلى هذا السبيل نستيطع القول بان ما من أحد انكر وجود الله الا لأنه أسير الأهواء والشهوات، قال الإمام الصادق: " ابعد ما يكون العبد من الله عز وجل إذا لم يهمه الا بطنه وفرجه ". ولذا ينتشر الالحاد، حيث ينتشر الفساد، وهذا ما اراده الصوفية من الكشف، اي ان الايمان بالله يحصل في القلب الزكي تلقائيا بدون دراسة وبرهنة، لأن هذه لا تثمر غير الشك والارتياب إذا لم يكن القلب صافيا نقيا.

ولا شئ أدل على ذلك من اننا نجد في كل عصر افرادا يؤمنون بالله بفطرتهم، فقد حدثنا التاريخ عن حنفاء في الجاهلية تركوا قومهم يعبدون الأصنام، وعكفوا على عبادة الرحمن. ومهما شككت فاني على يقين بان طهارة القلب، والخوف من الله

سبحانه بترك المحرمات والموبقات، وطاعته بفعل الواجبات والعبادات، والاخلاص له في جميع الأقوال والاعمال يكون سببا كافيا وافيا لمعرفة الله عز وجل، وللحكمة أيضا ولا أريد بالحكمة الحكمة النظرية، والعلوم الطبيعية، وانما أردت الحكمة التي وصف الله بها الأنبياء وأهل الخير والمعرفة، وأشار إليها بقوله: " ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا "، أردت الحكمة التي جاءت على لسان الإمام علي بن طالب، ولسان لقمان الحكيم، وهي التي تقربنا من الخير والهداية، وتبتعد بنا عن الشر والضلالة، وقد جاء في الحديث الشريف، " رأس الحكمة مخافة الله " اي ان الخوف مصدر الحكمة، وقال الإمام الصادق: " والحكمة ميزان التقوى، وثمرة الصدق ".

المستشرقون والتصوف
كان المستشرقون، وما زالوا الرائد الناصح للاستعمار
– الا قليلا منهم – ولم تكن بحوثهم في الاسلام وتاريخ العرب
والمسلمين وتراثهم الا للتحريف والتزييف، والا للدس واحداث
الثغرات في الصفوف، وما تكلموا عن شئ يتصل بالاسلام
والمسلمين الا بهذا القصد، أما العلم والتماس الحقيقة الذي تذرعوا
به فكذب وخداع واحتيال، وفي كتاب " الشيعة والحاكمون "
قدمت أرقاما على هذه الحقيقة، والآن وبمناسبة الكلام عن
التصوف اذكر أمثلة من آراء بعضهم في التصوف الاسلامي،
كشاهد على العداء والكيد للاسلام وبني الاسلام.
قال المستشرق نيكلسون في كتاب " الصوفية في الاسلام " تعريب نور الدين شريبة
ص ٩٠ طبعة ١٩٥١:
" المتصوفون قد أدوا دون ريب عملا جليلا للاسلام، فهم
بنبذهم قشور الدين، واصرارهم على تحصيل لبابه بتنمية المشاعر
الروحية، وتطهير البواطن، لا بالعمل الظاهري قد مكنوا
ملايين الناس من حياة غنية عميقة ".

والقشور في نظر هذا المستشرق هي الصلاة، وبناء المساجد، والتفرقة بين الكفر والاسلام، قال في ص ٨٨: " والصوفي الكبير أبو سعيد بن أبي الخير حين يتحدث بلسان القلندرية يعبر عن قواعدهم في تحطيم هذه الأوثان في شجاعة تأخذ بالألباب حين يقول: لن نؤدي ما فرض علينا من واجب مقدس ما لم نذر كل مسجد تشرق عليه الشمس حطاما، ولن يظهر المسلم حق المسلم ما لم يصر عنده الايمان والكفر واحدا ".

لقد روج نيكلسون لهذه الفكرة، ونعتها بالشجاعة لا لشئ الا لأنها جرأة على الله والرسول، ان معنى هدم المساجد ومساواة الكفر والاسلام انكار صريح للقرآن، والسنة النبوية، والشريعة الاسلامية، وهذي هي أمنيته وأمنية أمثاله من المستشرقين..

وقال في ص ٦: " القارئون للقرآن من الأوروبيين لا تعوزهم الدهشة من اضطرب مؤلفه، وعدم تماسكه في معالجة كبار المعضلات، وهو نفسه لم يكن على علم بهذه المتعارضات ".

فالقرآن بزعمه ألفه محمد صلى الله عليه وسلم، وهو مضطرب يناقض بعضه بعضا، ولم يدرك محمد نفسه هذا التضارب والتناقض..

هذا هو الاستشراق عند أكثر المستشرقين دس وتشويه وتهجم على الاسلام ومقدساته.. قال طه عبد الباقي سرور في كتاب " شخصيات صوفية " ص ٥٤ – ٥٦: " لبعض المستشرقين غرام خاص بالشك، ولبعضهم ولع ملح بالتجريح

الخفي للتراث الاسلامي، والثقافة المحمدية، فجاءت دراستهم للتصوف الاسلامي مبطوعة بطابع الشك، موسومة بالتجريح، مرقومة بالهوى.. وكان أقرب رجال الاستشراق إلى الانصاف هو المستشرق العالم نيكلسون ".

وإذا كان نيكلسون الذي نقلنا طرفا من أقواله هو أقرب المستشرقين إلى الانصاف فكيف بغيره؟!.

وبالتالي، فعلينا نحن العرب والمسلمين، وعلى كل باحث ينشد الحقيقة ان يربط بين أقوال هؤلاء المستشرقين، وبين الاستعمار، وينظر إليها كوسيلة من وسائله، وأداة من أدواته علينا أن ننظر إلى ما يكتبون وينشرون بيقظة وحذر، ولا نخدع بشئ مما يضفونه على بحوثهم من ألوان التحقيق والتدقيق، فإنها ستار للدسائس والمؤامرات.

كرامات الأولياء

بين المحال والتعجب:

فرق بعيد بين ما يحيله العقل، ويجزم بعدم وقوعه، وبين الذي يتعجب منه بعد وقوعه – مثلا – إذا قال لك قائل: الأسود ابيض، والموجود معدوم، والواحد أكثر من الاثنين، والعشرة أقل من الواحد، فان عقلك يرفض هذا بمجرد سماعه، وبدون توقف، لأنه محال في نفسه، ممتنع في ذاته، اما إذا سمعت رجلا يخبر بالمغيبات، أو يقرأ الأفكار على واقعها فإنك لا تنكر عليه ولكنك تتعجب منه، لأنه اتى بغير المعتاد والمألوف.

القرآن والمعجزات:

لقد أكبر القرآن العقل، واجله اي اجلال، واعتبره أساسا للتفكير بخلق الانسان، والسماوات والأرض، ودليلا للايمان بالله وكتبه ورسله، وفي الوقت نفسه ذكر للأنبياء معجزات خارقة للعادة، كقصة العزيز الذي أحياه الله بعد ان اماته مئة عام، وأبقى طعامه على ما كان لم تغيره السنون، وحكاية إبراهيم

الخليل مع الطيور الأربعة، وكيف اتت اليه سعيا بعد ان قطعهن وفرق اجزاءهن على الجبال، وكعصا موسى التي انقلبت حية تسعى، كابراء عيسى الأكمه والأبرص والأعمى، واحيائه الموتى، وكمحاربة الملائكة مع الرسول الأعظم خاتم النبيين، ورميه الحصى والتراب في وجوه المشركين، حيث كانت الرمية سببا لهزيمتهم وانتصار المسلمين عليهم. وذكر القرآن أيضا كرامات للأولياء، كحمل السيدة مريم بلا دنس، وقصة أهل الكهف، وقصة آصف بن برخيا مع سليمان في عرش بلقيس، وقوله: انا آتيك به قبل ان يرتد إليك طرفك، وما إلى هذه من خوارق العادات التي جاء ذكرها في الكتب السماوية، ولو كانت محالا لم يخبر القرآن عن وقوعها، ولم تتقبلها عقول الملايين عبر القرون والأجيال.

بل إن القرآن قد أثبت السحر: " واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما انزل عى الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرق بين المرء وزوجه وما هم بضائرين من أحد الا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم – ١٠٢ البقرة ".

الكرامات:

وعلى هذا فان حصول الكرامات على أيدي الأولياء امر ممكن يقره الدين ولا يأباه العقل، وقد فرق علماء الكلام بين

المعجزة والكرامة بان الأولى يشترط فيها التحدي، كأن يقول النبي لمن بعث إليهم: ان لم تقبلوا قولي فافعلوا مثل هذا، اما الثانية، وهي الكرامة فلا يشترط فيها التحدي.

اعتراض:

وقد يعترض البعض بان الحوادث المحسوسة لا بد ان تخضع لأسباب مادية، وعلل طبيعية، ومعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء تتنافى مع قانون الطبيعة ومبدأ العلية القائل: ان لكل حادثة سببا، وإذا انتقص هذا المبدأ فلا يمكن الاعتماد على اية نظرية فلسفية، وقانون علمي، لأن كلا من الفلسفة والعلوم يرتكز على نظام العلة والمعلول الطبيعيين، وبالتالي يثبت القول بالاتفاق والصدقة التي ابطلها العلم ورفضها العقل، وعليه يكون القول بالمعجزات والكرامات باطل من الأساس.

الجواب:

ان القول بالصدفة باطل من غير شك، ومبدأ العلية والسببية حق لا ريب فيه، ولا يمكن نقضه في حال من الحالات، ولكن الحوادث الطبيعية لا يجب أن تكون عللها وأسبابها ابدا ودائما طبيعية، كيف وعلة الطبيعية بمجموعها قوة تمكن وراء الطبيعية، وقدرة تتصرف فيها كيف تشاء متى تشاء؟! وإرادة الله سبحانه قد تعلقت بالمعجزة والكرامة ابتداء وبلا توسط سبب طبيعي، وبهذا كانت خارقة للمعتاد.

وقد جاء في الكتاب العزيز: " انما امره إذا أراد شيئا ان

يقول له كن فيكون – ٨٢ يس، وإذا أسألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني – ١٨٦ البقرة ".
واستجابة الدعاء قد تكون بتهيئة الأسباب العادية، وقد تكون لمجرد الإرادة القدسية بحيث يكون السبب الأول والأخير هو إرادة الله وحدها، وجاء في الحديث الشريف: " ان لله عبادا متى أرادوا أراد ".
وقد شاهدنا افراد أصيبوا بداء اجمع الأطباء الأخصائيون على أنه مميت لا علاج له، ثم برأوا فجأة بدون تطبيب، وسمعنا عمن أصيب بضربات قاتلة، ومع ذلك بقي سالما معافا، ولا سبب الا مشيئة الله، فكما يوجد الله الأشياء بأسبابها الطبيعية فإنه قد يوجد شيئا لمجرد الإرادة، وبدون سبب ظاهر لحكمة يعلمها هو، ونجهلها نحن، وحتى السبب الطبيعي لا يؤثر اثره الا بإرادته تعالى، فالنار سبب للاحراق، والسقوط من شاهق سبب للهلاك، ولكن بشرط ان لا يريد الله عكس ذلك، وبتعبير ثاني ان الأسباب الطبيعية تقتضي التأثير إذا أرادها الله كذلك، فإذا انتفت ارادته انتفى التأثير قهرا.
وبالتالي، فان كل من يعترف بوجود قوة مدبرة وراء الطبيعة يلزمه حتما ان يعترف بالمعجزات والكرامات، لان من أوجد الطبيعة بكاملها بدون سبب طبيعي فأولى ان يوجد بعض أشيائها كذلك، اما من ينكر الخالق الحكيم فلا كلام لنا معه – هنا – ونحيله على كتابنا " الله والعقل ".

وبعد هذا التمهيد نعرض حزمة من الكرامات التي نسبت إلى الصالحين وشيوخ الصوفية، نعرضها ونحن على علم اليقين بان بعضها نسب إلى رجال لا عهد لهم بها ولا علم، وبعضها الآخر انتحله مدلسون للتمويه على البسطاء والبلهاء.

السيد البدوي:

جاء في " حاشية الشيخ الباجوري على شرح الغزي على متن أبي شجاع " باب تغسيل الجنائز: " ان الميت لو غسل نفسه لا يحتاج إلى من يغسله ثانية، كما وقع ذلك للسيد احمد البدوي، " اي ان السيد البدوي بعد ان مات قام فغسل نفسه، وبعد انتهائه من الغسل مات ثانية، وهذا النوع من الكرامة لم يتفق لاحد، حتى للسيد المسيح، لان السيد المسيح كان حيا حين أحيا الموتى، اما السيد البدوي فقد أحيا نفسه وهو ميت ".

البطائحي:

في الجزء الأول من " لواقح الأنوار في طبقات الأخيار " للشعراني ص ١٣٢: " ان أبا بكر البطائحي كان نائما فرأى في نومه ان أبا بكر الصديق ألبسه ثوبا وطاقية، فاستيقظ فوجدهما عليه.. ونقل صاحب الكتاب المذكور ان البطائحي هذا مات، وان جسمه استحال إلى تراب، وان ترابه استحال إلى نبات، وان الحيوان الذي اكل من هذا النبات لم تؤثر به النار، ولم ينضج ابدا ".

وليس من شك ان كل من قرأ هذا لا بد ان يتساءل:

كيف تميز تراب البطائحي عن تراب غيره؟! وعلى افتراض حصول هذا التميز وامكانه كيف تميزت نبتة ترابه عن غيرها من النباتات؟! وفي حالة امكان هذه التمييز ووقوعه كيف تميز الحيوان الذي اكل هذه النبتة عن غيره؟!.

الجيلاني:

وفي الكتاب السابق الذكر ص ١٢٦ ان عبد القادر الجيلاني كان وهو طفل رضيع يمسك عن الرضاع في نهار رمضان لأنه صائم، وصادف ان غم الهلال على الناس في آخر الشهر، فسألوا أم عبد القادر: هل رضع اليوم؟ فقالت: نعم، فعلموا انه العيد... ومن كراماته انه بقي سنة يأكل ولا يشرب، وسنة يشرب ولا يأكل، وسنة لا يأكل ولا يشرب ولا ينام.. وإذا اقتضت حكمة الله خلاص انسان ونجاته من التهلكة على الرغم من وجود أسبابها، فأية حكمة في بقاء عبد القادر سنة كاملة بلا اكل ولا شراب ولا نوم؟!

قضيب البان:

قال الشيخ يوسف النبهاني في كتاب " جامع الكرامات " ج ١ ص ٣٦٠: " ان رجل دخل على الشيخ قضيب البان في بيته فرأى جسده يملأ البيت بكامله، فهاله ما رأى من هذا النمو الخارق، فخرج إلى الرجل ثم عاد، فرآه قد صغر حتى أصبح كالعصفور، فخرج ثم عاد، فرآه كعادته..

وقال عبد الله اليافعي في كتاب " نشر المحاسن الغالية في فضل

الصوفية أصحاب المقامات العالية ": لقد اشتهر عن الصوفية انهم يقلبون الحصى جوهرا، والحطب ذهبا، ونشارة الخشب دقيقا، والرمل سكرا، وماء البحر سمنا، ونقل ان صوفيا مات في سفينة فجف ماء البحر، حتى لم يبق منه قطرة، فنزل الركاب من السفينة، وحفروا للصوفي ودفنوه، فلما فرغوا من دفنه استوى الماء، وارتفعت السفينة، فركبوا وساروا..

وقد وضع القدامى العديد من المجلدات الضخمة في أمثال هذه " الكرامات " وأكثرها مطبوع، وكان انتشار هذه " الكرامات " عاملا قويا في القضاء على التصوف والمتصوفين، فلقد كان لهم مكانة في القلوب، ووجاهة عند الناس، ثم انتكسوا وضعف امرهم، حيث انتسب إليهم الأدعياء الذين تجاوزوا كل حد في الكذب والتدليس، فبعد ان كانت الكرامات معقولة مقبولة، كاستجابة الدعاء في شفاء مريض، والنجاة من بعض المخاطر، وما إلى ذاك، مما يتفق للصالحين وغيرهم، من ذوي النوايا الحسنة، أصبحت من النوع الذي ينفر منه السمع، ويأباه الطبع.

ومن الأسباب التي عجلت بانقراض الصوفية انغماس المنتمين إليهم في المحرمات والشهوات، وظهور أمثال القلندرية، حتى لم يبق معنى للتصوف عند هؤلاء ومن إليهم الا التكدي واستعمال البنج والأفيون (١).

---

(١) انظر الجزء الخامس من كتاب " الميزان في تفسير القرآن " للسيد محمد حسين الطباطبائي ص ٣٠٤ والجزء السادس ص ٢٠٤.

مصدر المعرفة وحقيقة الكشف عند الغزالي (*)

كانت ابرز ظاهرة في كلام المحاضرين والمعقلين هي فكرة التصوف بعامة، وتصوف الغزالي بخاصة، وليس ذلك بعجيب ولا بغريب، فلقد كان للتصوف اثره البالغ في الفلسفة والاخلاق والآداب عند العرب والمسلمين، كما كان الهدف الأول لبحوث الغزالي ومحور اهتمامه، وبه عرف واشتهر، وتبوأ المكان الأسمى، وبسببه أقيم هذا المهرجان شعرنا بذلك أم لم نشعر.

وبما ان بعض الزملاء قد نفى فكرة التصوف عن الاسلام والبعض الآخر أثبتها كان لزاما علي بصفتي الدينية ان أبين ما هو الحق، مستندا إلى كتاب الله، وسنة نبيه، لا إلى قول امام، أو قياس.

ان لفظ التصوف بالذات لم يرد في الكتاب ولا في السنة، فما من آية أو رواية نصت على أن التصوف خير محبوب، أو شر مكروه، ولكن الله ورسوله قد أمرا بالتقوى والصدق

---

* تليت في مهرجان الغزالي الذي أشرنا اليه في المقدمة.

والاخلاص، ونهيا عن النفاق والرياء والخيانة. اذن، فكل ما ينطبق عليه الصدق والاخلاص فهو من الاسلام في الصميم، وكل ما ينطبق عليه الرياء والنفاق فليس من الاسلام في شئ، وبهذا المقياس وحده يجب ان نقيس التصوف وكل موضوع حديث من الوجهة الدينية.

وبما أن تصوف الغزالي وأمثاله هو التقوى والحب والاخلاص وللانسانية كان حقا وهداية، أما تصوف المرائين والمنافقين فبدعة وضلالة. وبهذا نوفق بين أقوال الطرفين المتنازعين، فمن أثبت فكرة التصوف في الاسلام نظر إلى المتصوفين المخلصين، ومن نفاها عن الاسلام نظر إلى التصوف الدجالين والانتهازيين، فالنزاع اذن ناشئ عن سوء التفاهم، والاشتباه في القصد والمرام.

ولما كان في ربط المعرفة بالتصوف الكثير من العمق والدقة والغموض فقد ركزت كلمتي هذه على امكانه في ذاته بصرف النظر عن التفاصيل، وأوردت الأدلة على أن الكشف الصوفي أو الحدس، أو الذوق مهما شئت فعبر ليس محالا ولا ممتنعا، اما وجوده وتحققه في الخارج فاترك اثباته لغيري.

موضوع النقاش:

لقد دارت مناقشات حادة بين الفلاسفة القدامي والجدد حول مصادر المعرفة الانسانية وأسبابها، أما الهدف من تلك المناقشات فهو تحديد الموازين والمقاييس التي يعرف بها خطأ

الفكر البشري من صوابه، والحقائق من الأوهام، ولا يمكن القيام بأية دراسة الا في ضوء مبدأ يعتبر المقياس الصحيح للقضايا التي تكون محلا للاختلاف والأخذ والرد مهما كان نوعا ولونها.

والآن، ما هي مصادر المعرفة عند أبي حامد؟ ما هو المقياس الصحيح الواضح عنده لمعرفة الفكر الصائب؟ وهل وجهة نظره في ذلك تختلف عن وجهات انظار الفلاسفة والمتكلمين؟

لقد شك الغزالي في أشياء كثيرة، ولكن لم يكن شكه ناشئا عن شذوذ في طبعه، ولا عن اضطراب في اعصابه، كما زعم البعض، وانما السبب الأول والأخير تمرده على المجتمع وتقاليده، وبهذا كان أشبه بالحنفاء الذين تركوا قومهم يعبدون الأصنام، وعكفوا على عبادة الواحد الاحد. اما الأمور التي شك فيها أبو حامد فهي آراء الفلاسفة، وطريقة المتكلمين والصوفية، ومعتقدات أهل الباطن، فقد رآهم يعتمدون فيما يعتمدون على الحواس والعقل، فهما الشاهدان العدلان عندهم، ولكن الغزالي رأى أن أحد الشاهدين يكذب صاحبه، فالعين ترى الكوكب بمقدار الدينار، والعقل يراه أكبر من الأرض، وادا كذبت الحواس فبالأحرى، أن يكذب العقل، وعليه فلا يمكن الاعتماد على واحد منهما، وبالتالي يتم مذهب السفسطة، ويصدق قول السفسطائيين من أنه لا يوجد دليل على شئ يركن اليه.

ولكن السفسطة كاسمها ليس لها من واقع، فمحال ان تمر

على الامام أبي حامد بسلام، وما كان الله ليدعها تفسد ما استصلحه بوحيه ورسله فقذف النور في قلب عبده المخلص، وبصره بالحق بعد الغشوة، وناجاه في عقله، فاستصبح بنور اليقظة في بصره وبصيرته، فرأى أن البصر وما اليه من الحواس الظاهرة تصدق فيما لا يكذبها به العقل، كما لو رأت العين الجبال والأشجار، وتكذب فيما يكذبها به كرؤيتها الكوكب بمقدار الدينار، وان العقل يصدق فيما لا يكذبه الوحي، كحكمه بأن النفي والاثبات لا يجتمعان في الشئ الواحد، ويكذب فيما يكذبه به الوحي، كحكمه بأن العالم قديم وان الله يعلم الكليات، ولا يعلم الجزئيات مباشرة، بل بالواسطة، لأنه يعلم ذاته التي هي سبب الأسباب، وان الأجسام لا تحشر كما زعم الفلاسفة.

وبهذا حدد الغزالي أسباب المعرفة كلا في دائرة اختصاصه، فالحواس مصدر المعرفة، ولكن في موارد دون أخرى، ولو اعتمدناها في جميع الموارد لوجب ان نرفض كل فكرة لا يدرك واقعها بأحد الحواس، وهذا تقويض للكيان العلمي من الأساس، وكذا العقل فهو مصدر المعرفة في بعض الموارد دون بعض، ولو اتخذناه مصدرا في كل مورد لأهملنا الكثير من حقائق الوحي والدين، وعلى هذه السبيل خطأ الغزالي الفلاسفة، لأنهم اعتمدوا العقل في كل شئ، ورد على المتكلمين لأنهم قلدوا خصومهم الفلاسفة في كثير من المسائل، ونعى على بعض الفرق الصوفية، لأنهم غابوا عن حواسهم وعقولهم،

وزعموا انهم يشاهدون في أحوالهم الخاصة أشياء تناقض المحسوسات والمعقولات في أمور لا يكذب فيها العقل والحس.

اذن الغزالي لا يسقط العقل عن الاعتبار والدلالة على الحق، كيف وهو يؤمن بالوحي أكثر من ايمانه بنفسه، وقد بالغ الوحي في قدرة العقل على الهداية والرشاد، واعتبره المناصر الأكبر لاحكامه وتعاليمه، وانما ينكر الغزالي أن يكون العقل هو السبيل المطلق إلى جميع الحقائق، حتى حقائق الوحي ودقائقه. وبهذا نعلم مكان الخطأ فيما جاء في الكتب الحديثة من أن الغزالي ناقض نفسه بنفسه، حيث اعتمد منطق العقل في رده على الباطنية وغيرهم، بينما نعى على الفلاسفة نهج العقل.

كلا، لا تناقض ولا تهافت، فلقد رد الغزالي على الفلاسفة، حيث اعتمدوا العقل فيما لا يخصه ولا يعنيه من معضلات الوحي، ورد على الباطنية بالعقل فيما هو من شؤونه ومنطقه.

أهم أسباب المعرفة:

ان أهم أسباب المعرفة بعد الوحي عند الغزالي هو الكشف ومن اجله اخترت هذا البحث، وما أشرت اليه من الحواس والعقل انما هو للتوطئة والتمهيد، وقد استعصى معنى الكشف الذي اعتبره الغزالي مفتاحا لأكثر المعارف، استعصى على افهام الكثير، لان الناس انما تدرك وتتفهم الشئ المألوف لديهم، وما يحسونه في أنفسهم، ويرونه عيانا في غيرهم، أما ما لا عهد لهم بمثله فهم في ريب من وجوده، ومرية من لقائه.

وقد دارت حول الغزالي معارك وآراء متضاربة من اجل هذا الكشف، فمنهم من عده من أهل البدع والضلالات، وبعض المعاصرين له وضع رسالة في تكفيره، والأكثر الأغلب اعتبروه اماما في العلم والتحقيق والتدقيق، وحجة الاسلام على المسلمين في الاخلاص وأمور الدين، بل إن هذا الوصف، وهو حجة الاسلام قد صار علما عليه بالذات. وممن دافع عنه، وانتصر له الفيلسوف الشهير محمد بن إبراهيم الشيرازي صاحب كتاب الاسفار، والمعروف بصدر المتألهين (١) ومهما يكن، فان اختلاف الآراء حول شخصية الغزالي لبرهان ساطع قاطع على عظمته وعلو شأنه، وقد حظيت آراؤه باهتمام الفلاسفة في الشرق والغرب، وحلت مؤلفاته محل الصدارة عند أهل العلم وطلابه، وقادة الدين وأصحابه على تباين مللهم، واختلاف نحلهم.

حقيقة الكشف:

والآن، فما هو الكشف الذي عناه الغزالي، واعتبره مصدرا هاما من مصادر المعرفة، وبه صار في عداد الصوفية؟ هل هو الاتصال، والرواية عن الله بالمشاهدة، كما يروي فلان

---

(١) واعتذر عن تكفيره الفلاسفة بأنه فعل ذلك غيرة على الدين وحرصا على الاسلام، مع العلم بان صدر المتألهين شيعي جعفري، وحجة الاسلام سني شافعي، ولكن لا سنة ولا شيعة في الفلسفة ولا في العلم ولا في الدين ومن تتبع كتب السير والتاريخ يلاحظ ان الصلة بين علماء السنة والشيعة كانت فيما مضى أقوى مما هي عليه الآن.

عن فلان، أو هو اتحاد الانسان بالله، كما نسب إلى أبي يزيد البسطامي، أو حلول الله بالانسان وجميع المخلوقات، كما نقل عن الحلاج؟

والحواب:

ان الغزالي قد بين معنى الكشف بأنه نور يقذفه الله بالقلب ولكن هذا النور يحتاج إلى توضيح وتحديد، لان تفسير الكشف بالنور، والنور بالكشف أشبه بتفسير الماء بالماء، وبديهة ان الحوادث والوقائع الملموسة هي التي توضح المفاهيم، وتظهرها جلية على حقيقتها، تماما كحوادث الكنغو حيث أوضحت معنى الاستعمار، وكشفت الغطاء عن جميع اسراره وليس لدي أية حادثة استشهد بها، لان الكشف الصوفي من الأمور التي لا تعرف الا من قبل الانسان نفسه. والذي فهمته من مطاوي كلمات الغزالي المتفرقة في آثاره هنا وهناك، والمعنى الذي اتسم في ذهني من حيث لا أشعر هو أن الغزالي أراد من الكشف والنور شهادة القلب الطيب بما يراه ويحسه، وان ما يراه ويحسه هو عين اليقين، اما القلب الخبيث فشهادته كشهادة الفاسق الفاجر يجب ردها وعدم الاعتماد عليها.

وهنا سؤال يفرض نفسه: هل من الممكن ان يرى القلب الشئ على حقيقته بحيث يكون معصوما عن الخطأ والاشتباه؟ هل في القلب من المؤهلات ما تبلغ به مرتبة العلم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

ولا أستطيع انا بالخصوص ان أجيب بالايجاب على هذا

السؤال إذا طلب مني الأرقام والأمثلة من الحوادث والوقائع المحسوسة الملموسة. ولدى الجواب الكافي الشافي على أن هذا العلم ممكن في حد ذاته، وغير مستحيل في طبيعته، ومتى أثبتنا الامكان يصبح الوقوع سهلا يسيرا. والعقل لا يرى اية استحالة في هذا الكشف، لان المحال في نظر العقل هو مبدأ التناقض، أي ان يتصف الشئ بصفة ونقيضها في آن واحد، والكشف لا يستدعي شيئا من ذلك، وقد قال ابن سينا: كل ما قرع سمعك فذره في بقعة الامكان حتى يذودك عنه واضح البرهان. ومجرد الاستبعاد لا يصلح برهانا على شئ، فان الانسان لو لم ير الراديو لنفاه واستنكره، والقلب السليم أشبه بالراديو السليم، فكما أن الراديو يلتقط الصوت كما هو دون تغيير وتبديل في كلمة أو حرف أو نقطة أو حركة، وكما أن آلة التصوير ترسم مناظر الطبيعة دون تحريف وتزييف إذا كانت صحيحة فمن الممكن أن يشاهد القلب الطاهر الزكي الواقع على ما هو عليه في حقيقتة دون زيادة أو نقصان، ومن هنا قال الإمام علي بن أبي طالب: لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا.

وكما أن الراديو لا يلتقط الصوت الا بعد اجراءات، وتوافر جميع الشروط، بحيث إذا حصل له أدنى خلل توقف عن الالتقاط كذلك القلب لا يشاهد الحقيقة الا بعد الجهد والاجتهاد من اجل صفائه وخلاصه من كل شائبة تقف حاجزا بينه وبين رؤية الحق، فإذا ما تدنس بالرذائل والأرجاس احتجب عنه نور الحق، قال الإمام علي بن طالب: من قارف

ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه ابدا.
ولا غرابة في هذا التشبيه، تشبيه القلب بالآلة اللاقطة، فإذا كانت هذه الآلة الصماء قد أتت بالعجب العجيب فبالأحرى ان يصدر عن القلب ما هو أعجب واغرب:

وتحسب انك جرم صغير * وفيك انطوى العالم الأكبر

وقد رأينا نوعا من الحيوانات كالخلد، ليس له عينان ولا اذنان، رأيناه يحس بما يرى بالعين، ويسمع بالاذن، وقد أثبتت التجارب ان الكثير من الكفيفين يقومون باعمال المبصرين دون أن يقع أي حادث، وان بعضهم يحس بوجود الجدار والشجرة على بعد عشرة أمتار أو أكثر.

هذا هو الكشف الذي اراده الغزالي، انه علم القلب الصادق، وحدسه الصائب، ويقظة الذات الأمينة، وشهادتها العالة، وبهذا، بحكاية القلب للواقع حكاية المرآة للوجه كانت الذات هي الواقع، وكان الواقع هو الذات، لا فرق بين اكتشافها ما وراء الطبيعة بنور الاخلاص والايمان، وبين معرفتها بأشياء الطبيعة بالتجربة والعيان، كلاهما عين اليقين. وليس لرجل العلم أن يتنكر لهذا الكشف، ويرفضه بقول مطلق ما دام العلم نفسه لا يقر شيئا من الاحكام النهائية المطلقة.

ولا نجد عذرا لمن استبعد هذا الكشف، وانكره على الغزالي الا انه قاس الغير على نفسه، واتخذ من واقعه ميزانا للناس ولو تم وجه الشبه بيننا وبين الغزالي لكان للقياس وجه،

اما ان نغرق في المادة إلى ما فوق الآذان، ثم نقيس أنفسنا بأهل الطهر والايمان فإنه قياس مع الفارق، وتشبيه للضد بالضد، اما تصوف الغزالي فهو النسك والزهد في الدنيا بعد أن أقبلت عليه، تصوف يحده الايمان بالله والعمل المنزه عن كل غاية من من الغايات المشينة، لا تصوف الذين تظاهروا بالزهد في الدنيا بعد أن زهدت بهم، ولبسوا الخرق والمرقعات، وتشبهوا بالأولياء، ليتبرك بهم البلهاء.

لماذا اتجه الغزالي إلى القلب؟

بقي أن نتساءل: لماذا اتجه الغزالي إلى القلب. واتخذ منه محورا لاهتمامه؟

الجواب ان الغزالي اتجه إلى القلب لأسباب:

(١) ان في قلب كل انسان استعدادا لان يكون أديبا، ولا يكون تاجرا، فإذا تغلبت الشهوات على القلب كان شيطانا، وإذا تغلب القلب عليها كان ملاكا، ونرمز بالملاك إلى سيطرة الفضيلة على الرذيلة، وبالشيطان إلى استبداد الرذيلة وتحكمها، فاجتهد الغزالي ان يكون القلب هو الغالب والمنتصر، ومتى انتصر القلب على الكذب والطمع والرياء، وما إلى ذلك من أمهات الرذائل كان ما يحس به ويشعر حقا وصدقا.

(٢) ان أكثر اعمال الانسان الاعتيادية التي تحدث أثناء

حياته اليومية مصدرها القلب لا العقل، لأنها تنبعث عن الرضا والغضب، واليأس والرجاء، والامن والخوف، وكل هذه من صفات القلب، أما العقل فهو أصل القضايا الفنية، والمخترعات العلمية، وإذا كان له من شأن وأثر في غير قضايا العلم فهذا الأثر العقلي لا يتعدى تزيين الألفاظ، ونظم الأقيسة، وتنميق الخطب للتأثير على السامعين، ولو إلى حين الانتهاء من الالقاء، وان أبيت الا أن تجعل اثرا ما للعقل في غير قضايا العلم فنؤكد لك ان هذا الأثر يقف عند النظريات، ولا يتجاوزها إلى الاعمال الاعتيادية والخلقية، تماما كسلطة التشريع بالقياس إلى سلطة التنفيذ، فالعقل هو المشرع، والعاطفة هي المنفذ، وان استجابت للعقل، والا فنظرياته صرخة في واد.

والدلالة الصادقة الواضحة على هذه الحقيقة اننا نؤمن نظريا بان هذا الشئ حق، ثم نهمله ونتجاهله، ونعتقد نظريا بأن ذاك باطل، ثم نفعله ونقدسه والسر أن الانسان خاضع في اعماله لمنطق العاطفة لا لمنطق العقل، ولا لمنطق الدين، الا إذا تحول الدين إلى العاطفة. اجل ان الانسان أو العديد من افراد الانسان يتخيلون انهم يسيرون في اعمالهم بوحي العقل والدين، ولكنهم في الواقع مسيرون باملاء الهوى والغرض، وفي نفس الوقت يفسرون اعمالهم العاطفية بأوهامهم العقلية، ويخلطون بين حقيقة الدين، وبين ما يتراءى لهم انه من الدين، وتتجلى هذه

الظاهرة، ظاهرة الخلط بين أنواع المنطق. تتجلى عند الباطنية أكثر من أية طائفة أخرى.

ومن اجل هذا، من اجل ان القلب مصدر الاعمال التي يسببها الغضب والرضا، والامن والخوف، واليأس والرجاء اتجه الغزالي إلى القلب، حيث تكمن الادواء والاوباء، وأولاه كل رعاية وعناية.

(٣) ان للوحي واقعا في ذاته، ولكن ما هو الطريق لمعرفة هذا الواقع؟ هل نعرفه بالوحي، وكلنا يعلم أن الشئ لا يثبت نفسه، أو نثبته بالعقل، وهو عاجز عن حل المعضلات الإلهية، وقد رأينا آراء أرباب العقول متضاربة متباينة في هذا الميدان، فلم يبق الا القلب فهو المصدر الوحيد للايمان بالله وكتبه ورسله.

نوابغ الفكر الحديث:

ولهذا الرأي، وهو الرجوع إلى القلب في الإلهيات أنصار كثيرون من نوابغ الفكر الحديث، منهم الفيلسوف الشهير " كانت " والكاتب الانكليزي هكسلي، والألماني وانز، والفرنسي رومان، وغيرهم. وهكذا نرى الامام الغزالي يسبق هؤلاء النوابغ بمئات السنين.

الانقاذ من الضلال:
لقد رجع الغزالي إلى القلب لينقذ هذا الدين من المفاهيم الفاسدة، والأفكار الخاطئة التي هددته بخطر بالغ، لقد أراد الغزالي هذا الدين خالصا من تأويلات أهل الباطن، وامعانهم في التعسف والتكلف، ومن جهل أهل الظاهر وجمودهم على الألفاظ، ومن جهل أهل الظاهر وجمودهم على الألفاظ، ومن شطحات الصوفية التي تجاوزت كل حد، ومن أوهام الفلاسفة وتخيلاتهم التي اعتبرت حقائق الوحي في مرتبة أدنى من أقيسة أرسطو وتصوراته.
وبهذا كان الغزالي مجددا عظيما، ومصلحا كبيرا، واماما خالدا، ولو أن قادة الدين ساروا على سبيله هذه، وبنوا الحياة الدينية على أساسه، أساس الكتاب والسنة واطمئنان القلب، وتركوا التمحلات والتعسفات، لو فعلوا هذا لاستراحوا وأراحوا، ولما وجد في المسلمين شاب متحذلق، وآخر متزندق، ولما اضطر الحريصون على الدين أن يضعوا المؤلفات الطوال في الدفاع عنه، ونفي الأفكار الدخيلة عليه، وكنا وإياهم في غنى عن هذه الكتب التي تحمل اسم الاشتراكية في الاسلام، والسلم والاسلام، والعدالة الاجتماعية في الاسلام، وما إلى ذاك، أقول هذا، مع ايماني بأن أصحابها كتبوا ونشروا بدافع الغيرة على الاسلام، والاخلاص

للمسلمين، وبأننا اليوم في أشد الحاجة إلى هذه المؤلفات، ومع احترامي الفائق، وتقديري البالغ لجهودهم الطيبة المثمرة.
وبالتالي، فإذا نحن عظمنا وكرمنا الامام حجة الاسلام الغزالي فإنما نعظم ونكرم فيه الانسانية والعلم والدين، فلقد عاش الامام الغزالي للناس لا لنفسه، وعمل للدين لا للاتجار به، وجاهد في سبيل العلم للعلم، لذا سيبقى حيا ما بقي الانسان والعلم والدين " وذلك جزاء المحسنين ".